مــوت إيفــان ايليتــش

-١-

في المبنى الواسع لقصر العدل، اجتمع النائبُ العام وأعضاء المحكمة، أثناء رفع جلسة محاكمة ميلفنسكي، في مكتب ايفان ايرغوفيتش شيبيك: انتهى بهم الحديث إلى قضية كراسوف الشهيرة، فأصر فيودور فاسيليفيتش بحرارة على عدم اختصاص المحكمة، وتشبّث ايفان ايرغوفيتش برأيه: أما بيير ايفانوفتش فهو لم يشارك في النقاش فأعرض عنه وأخذ يتصفّح الجريدة التي حُملتْ إليه. قال:

- ياسادة، مات ايفان ايليتش!

- غير ممكن؟

- اقرأ بنفسك.

قال ذلك وهو يمدّ إليه الجريدة التي ماتزال تفوح برائحة حبر المطبعة.

قرأ فيها الأسطر التالية التي يؤطّرها خطٌّ أسود دقيق: تعلن «براسكوفيا فيودوروفنا غولوفين»، بمزيد من اللوعة، لذويها وأصدقائها وفاة زوجها المحبوب، ايفان ايليتش غولوفين، المستشار في محكمة الاستئناف الذي تُوفّي في ٤ شباط ١٨٨٢. وسيتم نقلُ الجثمان نهار الجمعة، الساعة الواحدة بعد الظهر.

كان ايفان ايليتش زميلاً لهؤلاء السادة الذين كانوا يحبّونه كثيراً. وقد ألمّ به المرضُ منذ عدة أسابيع وتأكّد أنه لايمكن أن يشفى. كان مايزال يحتفظ بمركزه لكن كان من المقدّر أن الكسيف، في حالة الوفاة، سيُعين في هذا المركز الشاغر، وسيحلّ «فينيكوف» أو «ستابيل» محل الكسييف. إذن عندما علم جميع الذين كانوا مجتمعين في المكتب، بموت ايفان ايليتش فكروا قبل كل شيء بالآثار التي سيتركها هذا الحدث على ترقيتهم وترقية أصدقائهم.

فكّر فيودور فاسيلييفيتش: «سأحصل الآن بكل تأكيدعلى مركز «ستابيل» أو مركز فينيكوف. فقد وُعدتُ به منذ زمن بعيد، وبفعل هذه الترقية سأحصل على زيادة مقدارها ثمانمئة روبل، ماعدا نفقات المنصب.

وقال بيير ايفانوفتش في نفسه: يجب أن أحصل الآن على نَقْل صهري إلى جنبنا. وستُسَرّ زوجتي بذلك كثيراً. ولن يُقال بعد اليوم أنني لاأنوي أن أفعل شيئاً لأهلها. وقال بيير ايفانوفتش بصوت عالٍ:

– كنتُ أعتقد أنه لن يقوم من مرضه. خسارة كبيرةٌ!

– لكن ماذا أصابه، على الإجمال؟

– لم يستطع الأطباء تحديد مرضه؛ أو على الأصح، عالجه كلٌّ منهم على طريقته. وعندما رأيته آخر مرة ظننتُ أنه سينجو من دائه.

– أما أنا، فلم أعدْهُ منذ الأعياد. على أني كنتُ أفكر دائماً في زيارته.

– أكانت له ثروةٌ؟

– أظن أن لامرأته ثروة ليست ذات شأن.

– لابدّ من الذهاب الآن. وهما يسكنان بعيداً جداً.

– تريد أن تقول: بعيداً عنك. كل شيء بعيد عنك.

قال بيير ايفانوفتش وهو يبتسم لشيبيك:

– لايمكنه أن يغفر لي أنني بقيتُ في الجهة الأخرى من النهر. حينئذ أخذوا يتحدثون عن امتداد المدينة، ثم عادوا إلى الجلسة.

فضلاً عن الأفكار بصدد تعيينات القضاء وتغييراته التي قد تنتج عن هذه الوفاة، فإن الحدث ذاته، موت صديق، أيقظ، كشأنه دائماً، في جميع الذين اطلعوا على النبأ، شعوراً بالفرح: لم أمت أنا، وإنما هو الذي مات.

كان كل واحد يفكر ويحسّ: هلاّ نظرتم! لقد مات وأنا ماأزال أحيا! أما معارف إيفان ايليتش المقرّبون، الذين يُدْعون أصدقاءه، فقد كانوا يفكرون فوق ذلك، بصورة لاإرادية، أنه مايزال عليهم أن يقوموا بواجبات من المجاملة المملّة جداً، وأن عليهم أن يحضروا الجناز وأن يقدّموا للأرملة تعازيهم.

كان أخلص صديقين له : فيودور فاسيليفتش وبيير ايفانوفتش .

كان بيير ايفانوفتش رفيق ايفان ايليتش في مدرسة الحقوق[1]، وكان يعتبره أسير فضله .

وبعد أن أطلع امرأته، أثناء العشاء، على موت ايفان ايليتش وعن الدواعي التي تجعل ممكناً تعيين أخيها في منطقتهم، ارتدى ثيابه ومضى، دون أن يستريح، إلى منزل ايفان ايليتش .

أمام درج المدخل اصطفت عربة سيّد وعربتا جياد . في الأسفل، في البهو، قرب المشجب استند إلى الجدار غطاءُ النعش، المزيّن بالنسيج المقصّب . وبالشرابات والشرائط الفضيّة الملمّعة جداً . كانت سيدتان بثياب سوداء تخلعان فروتيهما . كانت إحداهما أخت ايفان ايليتش، وكان بيير ايفانوفيتش يعرفها . كان ينزل الدرج زميلُ بيير ايفانوفتش، «شوارز»؛ فلما شاهده من فوق، توقف وغمز بعينه، وكأنه يريد أن يقول له : ماعمله «ايفان ايليتش» ليس بالأمر العسير، أما نحن فكنا أشطر» .

ثمّ وجهُ «شوارز» الذي زانه عارضان علي الطريقة الانكليزية، وكلٌ شخصه الهزيل بالملابس الرسمية، ثمّ كعهده دائماً، على رصانة رشيقة؛ وهذه الرصانة التي تناقض طبعه المرح، اكتسبت هنا شيئاً مثيراً أشد إثارة . هكذا كان يفكر بيير ايفانوفتش .

ترك بيير ايفانوفتش السيدات يمررن وصعد الدرج خلفهن ببطء . لم ينزل «شوارز» وانتظره فوق . أدرك بيير ايفانوفتش لماذا : كان يريد بالطبع أن يتفق معه على المكان الذي يلعبان فيه «الويست» هذا المساء . صعدت السيدات إلى حيث الأرملة . أشار «شوارز» لبيير ايفانوفتش بحركة من حاجبيه، وشفتاه مزمومتان، ونظرته فرحة، إلى اليمين حيث غرفة الميت .

دخل بيير ايفانوفتش وهو لايعلم جيداً كما يحدث ذلك في مثل هذه الحالة، كيف ينبغي له أن يتصرف . لم يكن يعلم سوى شيء واحد وهو أن

---

(١) مدرسة الحقوق : مؤسسة ارستقراطية في بطرسبرج .

إشارة الصليب في مثل هذه الظروف لابأس بها أبداً. لكنه لم يكن على يقين إن كان ينبغي فوق ذلك أن يحيّي الجثمان؛ فقرّر أن يوفّق بين الأمرين: إذا أنه رسم إشارة الصليب، عند دخوله، وحنى رأسه قليلاً. وفي الوقت نفسه تفحّص الغرفة، بقدر ماسمحت له بذلك حركات رأسه وذراعيه. كان يخرج من الغرفة شابان أحدهما طالب معهد، وربما كانا ابني أخي الفقيد، وهما يرسمان إشارة الصليب. وكانت امرأةٌ عجوز تقف بلا حراك؛ وكانت سيدةٌ مرتفعة الحاجبين على نحو غريب تكلمها بصوتٍ خافت. وكان المرتّلُ بسترته الرسمية وهيئته الحازمة الواثقة، يقرأ بصوتٍ عالٍ وبلهجة تستبعد كلَّ اعتراض. وكان خازن المؤن يروح ويجيء بخطاً خفيفةٍ أمام بيير ايفانوفتش وهو ينشر شيئاً على أرض الغرفة. وقد أحسّ بيير ايفانوفتش على الفور، عند رؤية حركته، برائحة خفيفة لجثة في طور التحلّل. وأثناء زيارته الأخيرة لايفان ايليتش لاحظ «جيراسيم» هذا وهو يقوم بمهمة الممرّض؛ وكان ايفان ايليتش يكنّ له مودة خاصة. ظلّ بيير ايفانوفتش يرسم إشارة لصليب وينحني انحناء خفيفاً باتجاه النعش والمرتّل والايقونات الموضوعة على الطاولة في زاوية من الغرفة. ثم لما بدا له أن التشوير بيديه قد دام طويلاً جداً توقّف وأخذ يتفرّس في الميت.

كان مُمدّداً كما يمدّد الأموات على نحوٍ شديد الثقل، شأن الجثث. وقد غرقت أطرافه المتصلّبة في أعماق تنجيد النعش، واستراح رأسه إلى الأبد على الوسادة؛ وعرض، ككل الأموات، جبيناً أصفر شمعياً، بصدغين غائرين عاريين من الشعر، وأنفاً بارزاً بدا كأنه يُثقل الشفة العليا. لقد تغيّر إيفان ايليتش كثيراً وأصابه الهزال أيضاً منذ زيارته الأخيرة لبيير ايفانوفتش؛ لكن وجهه، ككل وجوه الأموات، غدا أجمل وأبلغ دلالةً. وكان وجهه يعبّر عن أن ماينبغي فعلهُ قد أُنجز وأُنجز على نحوٍ حسنٍ. وأكثر من ذلك، كان يعبر عن لومٍ أو تنبيه للأحياء. بدا لبيير ايفانوفتش أن هذا التنبيه في غير محلّه، أو على الأقل إنه لايعنيه شخصياً. بيد أنه أحسّ بشيء

كريه، فرسم بسرعة إشارة الصليب مرةً أخرى، وبادر إلى النكوص واتجه الى الباب بسرعة مفرطة، كما خُيِّل إليه، خلافاً لأصول اللياقة. كان «شوارز» ينتظره في الغرفة المجاورة، منفرج القدمين، عابثاً بقبعته التي كان يمسك بها خلف ظهره. إن نظرةً واحدة تُلقى على شخص «شوارز» المرح والنظيف والأنيق تكفي لإنعاش بيير ايفانوفتش. وقد أدرك على الفور أن «شوارز» فوق ذلك لايستسلم للمشاعر المؤلمة. كانت هيئته كلها تقول: إن القدّاس على روح ايفان ايليتش ليس سوى أمرٍ عارض، ومامن مبرّر يصحّ معه أن نؤجّل الجلسة؛ وبعبارة أخرى لاشيء يجوز أن يمنعنا، هذا المساء بعينه، من فضّ ورق اللعب وهو يطقطق، بينما يرتّب الخادمُ على الطاولة أربع شمعات جديدة. وعلى العموم، مامن داعٍ يدعو إلى افتراض أن هذا الأمر العارض يمكنه أن يحول بيننا وبين قضاء سهرة اليوم بسرور كسائر السهرات. ولقد أسرّ بذلك لبيير ايفانوفتش الذي كان يمرّ أمامه. واقترح عليه أن يأتي من أجل لعبةٍ في منزل فيودور فاسيلييفتش. لكن كان مقدّراً بالطبع أن بيير ايفانوفتش لن يلعب بالورق هذا المساء. خرجت براسكوفيا فيودوروفنا، وهي امرأة قصيرة، سمينةٌ، ذاهبةً عرضاً بدءاً من الكتفين حتى القاعدة، بالرغم من جميع الجهود التي تبذلها لتتحاشى ذلك، ولها حاجبان مرتفعان على نحو غريب كحاجبي السيدة التي شوهدت قرب النعش، خرجت من شقّتها مع سيدات أخريات، وأدخلتهن غرفة الميت وقالت:

– سيبدأ الجنّازُ؛ هيّا ادخلوا، أرجوكم.

انحنى «شوارز» على نحوٍ غير واضح، ولم يتحرك؛ ومن البديهي أنه لم يقبل هذه الدعوة ولم يرفضها. تنهّدت براسكوفيا فيودوروفنا حين تعرّفت بييرايفانوفتش، فدنت منه وأمسكت بيده وقالت:

– أنا أعلم أنك كنتَ صديقاً حقيقياً لإيفان ايليتش.

ونظرت إليه منتظرةً حركة تطابق أقوالها. وكان بيير ايفانوفتش يعلم أنه كما كان ينبغي له أن يرسم هناك إشارة الصليب، فعليه الآن أن يشدّ على

يدها وأن يتنهد ويقول: «صدّقيني. . .» وهذا مافعله. وإذ فعله أحسّ أن النتيجة المرغوبة قد بُلغت: أحس أنه انفعل وأنها أيضاً انفعلت.

قالت الأرملة:

- تعال معي قبل بدء الجنّاز[1]: فعندي ماأقوله لك. أعطني ذراعك.

أعطاها ذراعه واتجَها إلى شقتها ومرّا أمام «شوارز» الذي رمى بيير ايفانوفتش بطرفة عين مشفقة.

كانت نظرته الحادة تقول: هاقد طارت منك لعبةُ «الهويست». فلا تحقد علينا إذا اخترنا لاعباً رابعاً. ربما جئتَ لتكون الخامس إذا صرتَ حراً. . .»

تنهّد بيير ايفانوفتش تنهّداً أكثر عمقاً، وأكثر حزناً، وشدّت براسكوفيا فيودوروفنا على ذراعه اعترافاً بالجميل. دخلا صالونها المفروش بالكريتون الوردي والذي كان يضيئه مصباحٌ بشكل ضعيف؛ جلسا قرب الطاولة، جلست هي على الأريكة، وجلس هو على غرقة منخفضة هبطت نوابضها تحت ثقله. أرادت براسكوفيا فيوردوروفنا أن تعرض عليه أن يتّخذ له مقعداً آخر، لكنها رأت هذا العرض في غير مكانه وهي في مثل وضعها، فلم تقلْ شيئاً. وعندما جلس بيير ايفانوفتش على النمرقة تذكّر أن إيفان ايليتش قد رتّب هو نفسه هذا الصالون وأنه استشاره بصدد هذا الكريتون الوردي ذي الأوراق الخضراء. وعندما مرت الأرملة قرب الطاولة لتجلس على الأريكة (كان الصالون مليئاً بالأثاث وبمختلف التحف) علق حرير طُرحتها السوداء بحَفْر الطاولة، عندئذ نهض بيير ايفانوفتش ليخلّص طرحتها فأخذت نوابضُ النمرقَة تتحرك وتدفعه. خلّصت الأرملة حرير الطرحة بنفسها، وعاد بيير ايفانوفتش إلى الجلوس وهو يسحق النمرقة المتمرّدة مرةً أخرى. لكن براسكوفيا لم تتخلّص تماماً؛ نهض بيير ايفانوفتش من جديد، ومن جديد

---

(١) الجنّاز: كانت العادة أن يقام، في اليوم الذي يسبق الدفن، جنّازٌ قصير في منزل الميت وأمام الجثمان الموضوع في تابوت مكشوف.

اضطربت النموقة وطقطقت. وعندما انتهى كل شيء، أخرجت منديلاً رقيقاً ونظيفاً وأخذت تبكي. لكن حادثة الطرحة والصراع مع النمرقة بردّا بيير ايفانوفتش الذي ظلّ جالساً، متجهّماً.

هذا الوضع المُحرج قطعه «سوكولوف» مدير خدم إيفان ايليتش الذي جاء يعلمهما أن الأرض التي اختارتها في المقبرة براسكوفيا فيودوروفنا تكلّف مئتي روبل. كفّت عن البكاء ونظرت إلى بيير ايفانوفتش نظرة الضحيّة فقالت له بالفرنسية: إن ذلك كله يؤلمها. لم ينبس بيير ايفانوفتش بكلمة، وبدرت منه حركةٌ تعبّر عن قناعته العميقة أن الأمور لايمكن أن تكون غير ذلك.

قالت بلهجة شهمة ومهدودة في الوقت نفسه: دخِّنْ.

وأخذت تحادث سوكولوف حول سعر الأرض.

سمعها بيير ايفانوفتش، وهو يشعل سيجارته، تناقش بالتفصيل مختلف الأسعار، وتختار في النهاية الأرض التي أرادت شراءها. وبعد أن انتهت من هذه المسألة أعطت تعليماتها بصدد المرتّلين. خرج سوكولوف.

قالت لبيير ايفانوفتش وهي تدفع الألبومات التي كانت على الطاولة:

- إني أفعل كلّ شيء بنفسي.

وعندما لاحظت أن رماد السيجارة يوشك أن يوسخ الطاولة قدّمت على الفور منفضة سجاير لبيير ايفانوفتش، وأردفت:

- أرى من النفاق التأكيد على أن ألمي يمنعني من الاهتمام بالمسائل العملية. على العكس، إذا كان هناك شيء ممكن - لاأقول- أن يعزّيني... بل على الأقل أن يسرّي عني... فهو بالضبط أن اهتم به.

وأخرجت مرة أخرى منديلها، وبدت كأنها ستجهش بالبكاء من جديد، لكنها سيطرت على نفسها فجأة وكأنها بذلت جهداً عنيفاً لذلك وقالت بهدوء:

- عليّ أن أحدثك في أمرٍ خطير.

انحنى بيير ايفانوفتش وهو يجهد في تثبيت نوابض النمرقة التي بدأت على الفور تهتزّ.

- لقد تألم آلاماً مبرّحة في الأيام الأخيرة.

- تألم كثيراً؟

- أوه! بشكل فظيع. لم يكفّ عن الصراخ لا خلال الدقائق الأخيرة فقط، لكن خلال ساعات كاملة. لقد صرخ دون انقطاع ثلاثة أيام متوالية. لم يكن ممكناً تحمّل ذلك. لاأدري كيف استطعت أن أقاوم ذلك. كنا نسمعه عبر ثلاثة أبواب. أوه! كم قاسيتُ!

سأل بيير ايفانوفتش:

- لكن هل كان بكامل وعيه؟

همست:

- نعم، حتى آخر لحظة. ودّعنا قبل ربع ساعة من النهاية، بل وطلب إخراج «فولوديا».

إن آلام رجلٍ عرفه منذ الطفولة معرفة حميمة، رجل أصبح فيما بعد شريكه في لعب الورق، هذه الفكرة ملأت بيير ايفانوفتش فجأة بالرعب، مع أنه شاعر بنفاقه ونفاق هذه المرأة. رأى من جديد تلك الجبهة، وذلك الأنف الذي يسحق الشفة العليا، فخاف على نفسه.

وفكّر: «ثلاثة أيام من الآلام المبرّحة ثم الموت. لكن ذلك يمكن أن يقع لي أيضاً، في كل لحظة، وفي الحال» واستولى عليه الخوف. لكنه سرعان ماأنجدتْه هذه الفكرة العادية جداً، دون أن يتبيّن ذلك، أن ذلك كله وقع لإيفان ايليتش لاله، وأن ذلك لن يقع ولايمكن أن يقع له، وأنه إذا فكّر في هذه الأشياء، استسلم لتلك الأفكار السوداء، وهو ماينبغي أن يتحاشاه، كما عبّر عن ذلك بوضوح وجهُ «شوارز». وبعد أن خطرت لبيير ايفانوفتش هذه المحاكمة هدأ روعه واستفهم باهتمام عن تفاصيل موت ايفان ايليتش، وكأن الموت شيء لايمكن أن يقع إلا لإيفان ايليتش ولايعنيه بشيء هو، بيير ايفانوفتش.

بعد أن روتْ براسكوفيا فيودوروفنا جميع تفاصيل الآلام الجسدية والفظيعة حقاً والتي تحمّلها ايفان ايليتش (وهذه التفاصيل لم يعرفها بيير ايفانوفتش إلا بمقدار ما آلمت أعصاب أرملته) رأت من البديهي أن الوقت قد حان للكلام على الأعمال.

- آه! بيير ايفانوفتش، ماأشقّ ذلك، ماأشد مشقّة ذلك!

وعادت إلى البكاء.

تنهد بيير ايفانوفتش وانتظر حتى تمتخط، حتى إذا امتخطت قال:

- صدّقيني . . .

عندئذ استأنفت كلامها وعرضت تلك القضية التي كانت بالطبع تشغلها فوق كل شيء: كان المطلوب معرفة ماينبغي الشروع به للحصول علي مالٍ من الخزينة بمناسبة وفاة زوجها. تظاهرت بأنها تسأل بيير ايفانوفتش المشورة بصدد النفقة؛ لكنه رأى أنها كانت تعلم كل شيء حتى أدنى التفاصيل، وخيراً منه، عمّا يمكن أن تنال من الخزينة بمناسبة هذا الحادث. لكنها كانت تريد أن تعلم إن كان من الممكن أيضاً أن تحصل على بعض المال الإضافي. حاول بيير ايفانوفتش أن يعثر على وسيلةٍ ما للوصول إلى ذلك، ولكنه بعد أن فكّر وبعد أن لام، على سبيل المجاملة، الحكومة على شحّها، أعلن أن لاحيلة له في ذلك. حينئذ تنهّدت واتّضح أنها تفكر بالوسيلة التي تتخلص بها من زائرها. أدرك ذلك فأطفأ سيجارته، ونهض، وشدّ على يدها، وخرج من الغرفة.

في غرفة الطعام حيث رأى الساعة الجدارية التي عثر عليها ايفان ايليتش بفرحٍ غامر لدى بائع سلعٍ من سقط المتاع. صادف الكاهنَ وبعض المعارف الذين وصلوا لحضور الجنّاز، ورأى أيضاً فتاةً جميلةً جداً، ابنة ايفان ايليتش، التي كان يعرفها. كانت بثياب سوداء. وكانت قامتها الرشيقة تبدو أرشق. كانت ملامحها متجهّمة، حازمة، بل وغضبى. حيّتْ بيير ايفانوفتش وكأنه مذنب بشيء ما. وخلفها، كان يقف فتى غني، باد غضبه

أيضاً، هو قاضي التحقيق، خطيبها، كما قيل، وكان بيير ايفانوفتش يعرفه أيضاً. حيّاهما الاثنين تحية كئيبة وتهيّأ لدخول غرفة الميت، حين ظهر، من تحت الدرج، طالب معهد صغير، هو ابن ايفان ايليتش الذي كان يشبه أباه شبهاً مدهشاً. كان الابن ايفان ايليتش كما تذكّره بيير ايفانوفتش في مدرسة الحقوق. كانت عيناه حمراوين لفَرْط مابكى وكانتا تعبّران هذا التعبير الذي غالباً مانجده في عيون الفتيان الفاسدين أبناء الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة. تجهّم لدى رؤيته وبدا عليه الارتباك والعبوس في آن واحد. حياة بيير ايفانوفتش بإيماءة من رأسه ودخل غرفة الميت. بدأ القدّاس: الشموع والتنهدات والدموع والنحيب ورائحة البخور... ظلّ بيير ايفانوفتش واقفاً، مقطّب الحاجبين، مثبتاً نظرته بقدميه. لم يرفع مرة واحدة نظره إلى الجثمان، ولم يُسلم نفسه للمشاعر الموهنة وانصرف بين أوائل المنصرفين.

كان البهو خالياً. خرج موزّع المؤن مسرعاً من غرفة الفقيد، ورمى بذراعيه القويتين يمنةً ويسرة جميع الفرويات ليعثر على فروية بيير ايفانوفتش ومدّها اليه:

خاطبه بيير ايفانوفتش ليقول شيئاً ما:

أترى، ياصاحبي جيراسيم؟ ماأعظم المصيبة!

أجاب جيراسيم وهو يكشف عن أسنانه البيضاء، المتراصّة، أسنان الفلاح:

- هذه هي مشيئة الله.

فتح الباب بحركة سريعة، شأنه شأن الرجل الذي أثقلته أشغالُهُ. ونادى الحوذيَّ، وساعد بيير ايفانوفتش على صعود العربة وقفز إلى درج المدخل، مسرعاً، ليجد، كما يبدو، مهمة أخرى تشغله أيضاً.

أحسّ بيير ايفانوفتش بسرور خاص في تنشّق الهواء النقي بعد روائح البخور والجثة والفينول.

سأله الحوذي:

- أين ينبغي أن أذهب؟

- لم يتأخر الوقتُ، وسأذهب إلى منزل فيودور فاسيلييتش.

بلغ المنزل. ووجد اللاعبين وهم يُنهون جولتهم الأولى، بحيث استطاع أن يشارك في اللعب كلاعب خامس.

-٢-

كانت قصة ايفان ايليتش من أبسط القصص، وأكثرها عادية، وأشدها فظاعة.

لقد مات ايفان ايليتش، المستشار في محكمة الاستئناف، في سن الخامسة والأربعين. وكان ابن موظف قضى خدمته في بطرسبرج، في وزارات شتّى، وبلغ ذلك الوضع الذي يبدو فيه بوضوح أن الذين بلغوه عاجزون عن ملء أية وظيفة ذي شأن، لكنهم لايمكن أن يُطردوا بسبب خدمتهم الطويلة ودرجتهم. فهم يحصلون إذن على مراكز صورية ومرتّبات غير صورية بتاتاً، تتراوح بين ستة آلاف روبل وعشرة آلاف ويحتفظون بها حتى شيخوختهم.

كذلك كان المستشار الشخصي «ايليا ايفيموفتش غولوفين» العضو الذي لاحاجة إليه في عدة إدارات لاحاجة إليها.

أنجب ثلاثة أولاد، ثانيهم ايفان ايليتش. سلك الأكبر مهنةً كمهنة أبيه، لكن في وزارة أخرى، واقترب من ذلك الوضع الذي تثبت فيه مرتّبات الموظفين بقوة العطالة وحدها. وكان الثالث مخفقاً، فلم يوفّق في مختلف أعماله وعمل في سكة الحديد. وكان أبوه وإخوته وأزواجهم لايتحاشون فقط التقاءه، لكنهم لم يكونوا يتذكرون وجوده، مالم تكن هناك ضرورةٌ مطلقة. تزوجت أختُ ايفان ايليتش البارون «غريف» وهو موظف من بطرسبرج كأنه حموها. كان ايفان ايليتش فذاً في الأسرة. كان أقل برودة ودقة من الأكبر، وأقل اندفاعاً من الأصغر. وكان في الوسط بينهما: رجلاً

ذكياً، حيوياً، مقبولاً ومستقيماً، درس في مدرسة الحقوق مع أخيه الأصغر؛ وبينما لم يستطع هذا أن ينهي تعليمه وطُرد من الصف الخامس، أنهى ايفان ايليتش دروسه بتفوق. ومنذ مدرسة الحقوق ظهر كما كان دائماً: رجلاً موهوباً، مرحاً، اجتماعياً، لكنه كان يؤدي دائماً وبصرامة مايعتبره واجباً؛ وكان الواجب عنده مايعتبره رؤساؤه واجباً. لم يكن يتذلّل وهو صبيّ، ولم يتذلل فيما بعد؛ لكنه كان منذ مستهلّ شبابه، يحسّ بانجذابه إلى الأشخاص الذين يشغلون مراكز اجتماعية رفيعة، شبيهاً بالذبابة التي يجتذبها النور؛ كان يتمثّل تصرّفاتهم وتصوّراتهم للحياة ويصادقهم. وقد مرّت انجذابات الطفولة والصبا دون أن تترك فيه آثاراً عميقة. أسلم نفسه للذّات الحسّ، وللغرور، وفيما بعد، في أواخر دراسته، لليبيرالية، لكنه أمسك نفسه ضمن بعض الحدود التي حدّدها له ذوقه الطبيعي.

ولما كان في مدرسة الحقوق ارتكب أعمالاً بدت له دنيئة، وكان يشمئز منها حتى وهو يقوم بها. لكنه عندما شاهد، فيما بعد، أن أناساً في المراكز العليا يرتكبون الأعمال نفسها ولايعدّونها سيّئة، نسيها تماماً دون أن يراها حسنة، ولم تعد ذكراها تعذّبه.

تخرّج من مدرسة الحقوق بمرتبة الفئة العاشرة(١). وتلّقى من أبيه المال الضروري لتجهيزه الكامل، وأوصى على بزةٍ من عند «شارمر»، وعلّق بسلسلته مداليةً نُقشَ عليها المثلُ اللاتيني: «توقّع النهاية»، وودّع المدير والأساتذة، وتعشّى مع أصدقائه عند «دونون»، وتزود بحقيبة جميلة وجديدة، وبثياب داخلية، وبملابس، وبلوازم الزينة، وبموس الحلاقة، وبمعطف السفر، - أوصى على ذلك كله واشتراه من خير المخازن- وسافر إلى المقاطعة حيث عُيّن بفضل والده، موظفاً لمهمات خاصة لدى المحاكم(٢).

---

(١) - كان أفضل الحائزين على شهادة مدرسة الحقوق (وكذلك الحائزون على شهادة كلية الحقوق) يدخلون الخدمة المدنية بهذه المرتبة.

(٢) - موظف. . . لدى الحاكم: هو موظف شاب مرتبط بحاكم المقاطعة يكلّف بمهمات شتّى.

في المقاطعة، توصّل ايفان ايليتش مباشرة إلى أن يوجد لنفسه وضعاً سهلاً ومقبولاً كوضعه الذي ضمنه بمهنته، وكان في الوقت نفسه يلهو لهواً ساراً ومحتشماً. وكان رؤساؤه يرسلونه أحياناً ليفحص المناطق؛ كان يتصرف دائماً بكرامة، إزاء من هم فوقه ومن هم دونه على حد سواء، ويقوم بالمهمات التي تُعهَد إليه والتي تتعلق بالطوائف المنشقّة بدقة وأمانة صارمتين لايمكنه هو نفسه إلا أن يفخر بهما.

بالرغم من شبابه وطبعه المرح، كان متحفّظاً أشدّ التحفظ في قضايا الخدمة، رسمياً بل وقاسياً؛ لكنه كان يبدو في المجتمع بشوشاً، خفيف الروح، لبقاً، رقيقاً، طيّب الخلق، كما كان يقول عنه الحاكم وزوجته وكان يتردّد عليهما.

وكانت له في المقاطعة علاقة بسيدة ارتمت على هذا الشاب الأنيق؛ وكانت له مغامرة غرامية مع تاجرة قبّعات. كما حدث له أن مجن مع مرافقين عسكريين عابرين وقصد برفقتهم بعد العشاء شارعاً متطرّفاً. وحدث له أن تملّق رئيسه وزوجة رئيسه؛ لكن ذلك كله طُبع بطابع نبيل، متميّز إلى حدٍّ لايمكننا معه أن نصفه بقسوة: «يجب أن نغفر للشباب طيشهم»، كما يقول المثل الفرنسي وكانت هذه الأشياء تُعْمل بأيدٍ نظيفة، وثياب جديدة، وصحبة حسنة، على الخصوص؛ ومن ثمّ، بموافقة الأشخاص الرفيعي المكانة.

خدم ايفان ايليتش هكذا خمس سنوات، ثم خدم في المؤسسات القضائية الجديدة حيث كانت تحتاج إلى رجال جدد.

كان ايفان ايليتش أحد هؤلاء الرجال الجدد.

عُرض عليه مركز قاضي التحقيق فقبله، مع أن ذلك أجبره على الذهاب إلى حكومة أخرى، وقطع العلاقات التي انشأها، وخلق علاقات أخرى. رافقه أصدقاؤه إلى المحطة وأهدوه علبة سجائر فضّية؛ صُوِّرت الجماعة كلها، والتحق ايفان ايليتش بمنصبه الجديد.

بدا ايفان ايليتش، بصفته قاضياً للتحقيق، كما ينبغي للقاضي أن يكون، دقيقاً، ماهراً في فصل قضايا الخدمة عن العلاقات الخاصّة وتصرّف بالجدارة نفسها عندما كان في مهمة غير عادية بجنب الحاكم. بل إن وظائف قاضي التحقيق ظهرت لايفان ايليتش أكثر تشويقاً وجذباً من التي كان يقوم بها سابقاً. كان يجد اللذة فيما مضى في أن يمرّ، خفيف الخطا، ببزته التي من عند «شارمر»، أمام ذوي الحاجات والموظفين المرتجفين الذين كانوا ينتظرون المقابلة ويحسدونه على أنه يستطيع أن يدخل مباشرة مكتب الحاكم ويجلس إلى طاولته ليشرب الشاي ويدخن. لكن عدد الأشخاص التابعين لمشيئته كان قليل الأهمية: كانوا، في معظمهم، مفوّضي شرطة ومنسقين عندما كان يُرسل بمهمة: وكان يحب كثيراً أن يُعامل بلطفٍ، وكرفيق، هؤلاء التابعين له؛ كان يجب أن يشعرهم أنه يستطيع أن يسحقهم، فيعاملهم ببساطة معاملة الصديق. لكن هؤلاء الناس كانوا قلّة. أما الآن، وبعد أن أصبح قاضي تحقيق، فقد أخذ يحسّ أنهم جميعاً، دون أي استثناء، حتى أكثر الشخصيات أهميةً وكبرياء، وأنه يكفيه أن يكتب بضع كلماتٍ على ورقة بعنوانه حتى يُؤتى بأية شخصية مهمة أو متكبرة باعتبارها متّهمةً أو شاهدة مجبرة على الوقوف إذا لم يدعُها هو، ايفان ايليتش، إلى الجلوس، ومجبرة على الإجابة عن أسئلته. لكن ايفان ايليتش لم يتعسّف قط في استخدام سلطته. على العكس، كان يبذل وسعه في تلطيف الأشكال. بيد أن الشعور بهذه السلطة وإمكان تخفيفها كانا يكوّنان في نظره الأهمية الرئيسية والجاذبية لوظيفته الجديدة. ولقد اكتسب ايفان ايليتش بسرعة، أثناء قيامه بوظيفته في تحقيقه في القضايا الجنائية، هذا النهج الذي يقوم على تنحية جميع الظروف الغريبة عن الخدمة، وعلى إعطاء كل قضية، مهما تكن معقّدة، مظهراً تكون معه صالحةً لأن يُعبَّر عنها على الورق، بما أن آراءه الشخصية مستبعَدةٌ، مع حرصه على أن تُراعى جميع الشكليات. كان هذا الشيء جديداً كل الجدّة. كان من الأوائل الذين طبّقوا أنظمة ١٨٦٤[1].

---

(١) - أنظمة ١٨٦٤: الأنظمة المتعلقة بالمؤسسات الجديدة والإجراءات القضائية الجديدة.

في المدينة التي كان يشغل فيها مركز قاضي التحقيق، عقد علاقات جديدة، واتّخذ هيئة جديدة، وغيّر لهجته. ظلّ على مسافة من السلطات الإدارية، وخلف حلقةً من الأصدقاء بين القضاة والنبلاء الأغنياء الذين يقطنون المدينة: أخذ ينتقد الحكومة انتقاداً خفيفاً وعُدَّ ليبيرالياً معتدلاً، رجلاً ذا أفكار على شيء من التقدّم. ولقد كفّ عن حلق ذقنه وترك لحيته تطول[1] كما يحلو لها، دون أن يغيّر، مع ذلك، شيئاً من أناقة ملبسه.

مرّت حياة ايفان ايليتش في مقرّه الجديد، بسرور عظيم؛ فالوسط الناقدُ الذي دخله كان موحّداً توحداً كبيراً؛ ومرتّباته أكبر من ذي قبل؛ ثم كانت هناك متعة أخرى هي «الهويست». لقد أخذ يلعب بالورق، وبما أنه كان يلعب بمهارة وبمرح، مع الحذر، فإنه كان يربح دائماً تقريباً.

بعد سنتين من إقامته في هذه المدينة، تعرّف على المرأة التي ستغدو امرأته. كانت «براسكوفيا فيودوروفنا ميكيل» أكثر الفتيات سحراً وذكاءً وتألقاً في تلك الحلقة التي ينتمي إليها ايفان ايليتش. وبين التسليات التي أوجدها لنفسه ليستريح من مشاغله كقاضٍ للتحقيق، تلك الصلات البهجة، السارة، التي أقامها مع براسكوفيا فيودوروفنا.

ولما كان مايزال مرتبطاً بالحاكم، رقص كثيراً. أما عندما أصبح، فيما بعد، قاضياً للتحقيق فلم يكن يرقص إلا استثناءً. كان يرقص كأنه يقول: إني وإن أكن قاضياً من الفئة الخامسة، فإني أستطيع أن أُدلّل على أني لاأقلّ عن غيري، فيما يتعلق بالرقص. وهكذا كان يرقص أحياناً، في آخر السهرة، مع براسكوفيا فيودوروفنا! وأثناء هذه الرقصات فاز بقلبها. غدت عاشقة له. لم يكن في نيته أن يتزوج، لكن عندما أُغرمتْ به. طرح على نفسه بصراحة السؤال التالي: لماذا لاأتزوّج؟

كانت براسكوفيا فيودوروفنا من أسرة نبيلة محترمة؛ لم تكن بشعة

---

(١) - كان على الموظفين، في عهد نيقولا الأول، أن يكونوا حليقين؛ ثم سُمح لهم في عهد الاسكندر الثاني، بدءاً من ١٨٦٠، أن يتركوا لحاهم تطول.

وكانت تملك شيئاً من الثروة. كان بوسع ايفان ايليتش أن يطمح بامرأة أكثر تألقاً، لكن هذه كانت مع ذلك شريكاً حسناً. كان لايفان ايليتش مرتّبه وكان يأمل أن يكون لها دخلُها المعادل. كانت الفتاة لطيفة جداً، مقبولةً، ملائمة جداً، ومن أسرة كريمة.

إن القول بأن ايفان ايليتش تزوّج لأنه أُغرم بخطيبته ولأنه وجد أن ميولها تتوافق توافقاً تاماً مع ميوله، قولٌ خالٍ من الصحة كقولنا إنه تزوّج لأن الناس الذين من عالمه وافقوا على هذا الزواج.

وتزوّج ايفان ايليتش.

مرّ الزواج نفسه، والأزمنة الأولى من الحياة الزوجية بمداعباتها وأثاثها الجديد، وأوانيها الجديدة، وبياضها الجديد، بسرور عظيم حتى حَبَل براسكوفيا فيودوروفنا، بحيث أن ايفان ايليتش قال في نفسه إن الزواج لايقتصر على عدم تعكيره هذه الحياة السهلة، اللطيفة، الفرحة، الصحيحة دائماً، التي يُقرّها المجتمع، والتي هي الحياة الوحيدة التي يعتبرها ايفان ايليتش ممكنة، بل إن الزواج سيجعل هذه الحياة أكثر سروراً. لكن ها إن الأشهر الأولى من حبل براسكوفيا فيودوروفنا تشهد حدوث شيء جديد، كريه، مؤلم وغير لائق، يمكن توقعه، ولايمكن التخلص منه.

لقد أخذت امرأته، دون أي داعٍ- كما خُيِّل إلى ايفان ايليتش - ومن كل قلبها، كما كان يقول، تعكّر مجرى حياته المقبول والصحيح: بدت غيرى دون مبرر، وطلبت إليه أن يُعنى بها باستمرار، وسعت إلى مماحكته وشاحنته مشاحنات كريهة وفظّة.

في البداية، كان ايفان ايليتش يرجو أن يتفادى مُزعجات هذا الوضع بموقفه المتجرّد والصحيح الذي كان ناجحاً حتى الآن في حياته: تظاهر بتجاهل سوء مزاج امرأته وظل يعيش عيشة خفيفة بهجة كسابق عهده؛ كان يدعو أصدقاءه إلى لعب الورق عنده، كان يذهب إلى النادي أو إلى منازل زملائه. لكن امرأته شرعت، ذات يوم، تسبّه سباً غليظاً، وظلت تخاصمه

بعنف شديد كلما رفض الخضوع لمتطلّباتها حتى لقد ارتعب ايفان ايليتش من ذلك. كان واضحاً أنها قررت بحزم الاستمرار في ذلك مالم يخضع، أي مادام لم يرتضِ البقاء في البيت، ومادام لم يضجر فيه كما تضجر هي. أدرك أن حياة الأسرة- مع زوجته على الأقل- لاتجعل الحياة دائماً أكثر سروراً وملاءمة، بل إنها، على العكس، تعكّر انسجامها، ومن ثمّ كان لابد من حماية الذات إزاء عناصر التعكير هذه.

فكّر ايفان ايليتش في حماية نفسه. الشيء الوحيد الذي كان يوهم براسكوفيا فيودوروفنا كانت مشاغل زوجها؛ ولذلك أخذ ايفان ايليتش يقاوم امرأته بالتذرّع بواجبات أعبائه، محافظاً هكذا على استقلال عالمه الخاص.

برزت ضرورة الاستقلال هذه بروزاً أكبر بعد ولادة ولدهما، أثناء المحاولات غير المجدية للإرضاع وأثناء أمراض الأم والطفل الحقيقية والوهمية، وهي أمراض كانت تقتضي تدخل ايفان ايليتش وإن كان لايفهم شيئاً منها.

كلما كانت امرأة ايفان ايليتش تغدو أكثر نزقاً وتطلّباً، كان يحوّل كلّ اهتمام حياته أكثر فأكثر إلى أعمال خدمته. كان يزداد حباً لمشاغله ويغدو أعظم طموحاً.

وسرعان ماأدرك، بعد مضيّ نحو سنة من زواجه، أن حياة الأسرة، وإن كان لها بعض المزايا، إلا أنها شيء شديد التعقيد، ومؤلم جداً، وعليه أن يقف إزاءها موقفاً محدّداً بدقة، شأنه إزاء خدمته، لكي يتسنّى له القيام بواجبه، أي لكي يتسنّى له أن يحيا حياة صحيحة، وكما يوافق عليها المجتمع.

قاعدة السلوك هذه، إزاء حياته الأُسرية، أفلح ايفان ايليتش في تهيئتها. وكان لايتطلب من الأسرة إلا رغد العيش الذي يمكن أن تمنحه إياه: المائدة، السرير، نظام المنزل، وفوق كل شيء، تلك اللياقة التي يحدّد

أشكالها الرأي العام. كان يود لو يلقى أيضاً المجاملة والمرح؛ فإذا حصل عليهما اعترف بحسن الصنيع، أما إذا وجد معارضة، وسوء مزاج، لجأ فوراً إلى عالمه الخاص، إلى مشاغله، فأحسّ فيها بالرضا.

كان ايفان ايليتش يُعدّ موظفاً ممتازاً، وبعد مضيّ ثلاثة أعوام، عيّن وكيلاً للنيابة. إن واجبات هذا العبء الجديدة، وأهميتها، وقدرته على إخطار أيّ كان وإيداعه السجن، والمرافعات التي عليه أن يلقيها أمام الجمهور، ونجاحاته كخطيب، كل ذلك زاد من تعلّقه بخدمته.

وجاءه أولادٌ آخرون أيضاً؛ غدت براسكوفيا فيودوروفنا أشدّ نزقاً ومشاكسة؛ لكن قاعدة السلوك التي اصطفاها ايفان ايليتش إزاء أسرته جعلته ممتنعاً تقريباً على تقريع امرأته.

بعد إقامة سبع سنوات في هذه المدينة، عُيِّن ايفان ايليتش نائباً عاماً في حكومة أخرى. فانتقل إليها. لكن المال لم يتوافر له، ولم يرق المكان لبراسكوفيا فيودوروفنا. ارتفع مرتّب ايفان ايليتش عن ذي قبل، لكن الحياة كانت أغلى، وفضلاً عن ذلك فقد مات اثنان من الأولاد وغدت الحياة لاتطاق أكثر مما كانت عليه.

جعلت براسكوفيا فيودوروفنا من زوجها مسؤولاً عن جميع المصائب التي حلّت في إقامتها الجديدة. إن معظم المحادثات التي جرت بين الزوج والزوجة، ولاسيّما عندما تعلّق الأمر بتربية الأولاد، كانت تحيي ذكرى الخصام القديم وتجرّ إلى مناقشات جديدة. وفي لحظة نادرة كان العشق يسوق الزوجين أحدهما إلى الآخر، لكن هذه اللحظات كانت قصيرة الأمد. كانت هذه اللحظات جُزيراتٍ يسيران على شواطئها زمناً ليغرقا بعدها في بحر كرههما الكامن الذي كان يتجلّى في البعد الذي يشعر به كلٌّ منهما تجاه الآخر. كان هذا البعدُ جديراً بأن يُحزن ايفان ايليتش لو اعتقد أنه غيرُ طبيعي؛ لكنه لم يكن طبيعياً فحسب بل إن طريقته في التصرف كانت تتجه بالذات إلى هذا الهدف. كان هدفه يقوم دائماً على التخلص أكثر فأكثر من

المضايقات الأسرية وعلى أن يعزو إليها طابعاً غير مؤذٍ وسليماً. وكان يتوصل إلى ذلك بتقليص الزمن الذي يقضيه في أسرته قدر المستطاع. فإذا اضطر إلى أن يعود إلى المنزل حمى نفسه من الهجوم بفضل حضور الغرباء. ثم إن ايفان ايليتش كانت له مهماته، وهذا هو الشيء الرئيسي. كان اهتمامُ حياته كله منصباً على ذلك وكان هذا الاهتمام يستغرقه استغراقاً تاماً. كان شعوره بسلطته، والإمكان الذي هو فيه أن يدمّر أيا كان ويقضي عليه، وأمارات الاحترام التي كان يُقابَل بها في المحكمة، ومراعاة مرؤوسيه له، ونجاحاته بين من هم فوقه ومن هم دونه، ولاسيما مهارته في الأعمال، وهي مهارة تبينها هو نفسه، كل ذلك كان يفتنه ويملأ حياته، مع الهويست، والولائم وأحاديثه مع زملائه. هكذا كانت إذن تجري حياةُ ايفان ايليتش كما يليق برأيه، أي بسرور وعلى نحوٍ صحيح.

عاش هذه العيشة سبع سنوات. كان عمرُ ابنته البكر ستة عشر عاماً. فَقَدَ ولداً آخر؛ وبقي له صبيٌّ، طالب معهد كان موضوعاً لنقاشات مستمرّة. كان ايفان ايليتش يريد أن يدرس في مدرسة الحقوق، لكن براسكوفيا فيودوروفنا أدخلته المعهدَ، بروح المشاكسة. وكانت ابنته تدرس في المنزل وتتقدّم في دروسها؛ وكان الولد مجتهداً أيضاً.

-٣-

هكذا عاش ايفان ايليتش على مدى سبعة عشر عاماً من زواجه. كان نائباً عاماً منذ زمن طويل، وقد رفض عدة مرات تغييره انتظاراً لمنصب أفضل. عندما وقع فجأة حادثٌ كريه كاد يعكّر هذه الحياة الوادعة من أعماقها. كان ايفان ايليتش يتوقّع أن يُعيَّن رئيساً لمحكمة في مدينة جامعية؛ لكن لايُدرى كيف حصل «هوب» على هذا المكان. غضب ايفان ايليتش وانحى عليه باللوم وساءت علاقاته مع رؤسائه، فأبدوا تجاهه شيئاً من البرودة، وعند الترفيع التالي استُبعد مرة أخرى.

كان ذلك في ١٨٨٠ . وكانت هذه السنة أشد سنيه مشقّة . فمن جهة ، تبيّن أن مرتبه لايكفيه ليعيش ، وأن الجميع من جهة أخرى ، أخذوا ينسونه ، وأن ماكان يعده ظلماً صارخاً وشنيعاً ، لم يكن في نظر الآخرين سوى شيء جد طبيعي . حتى إن أباه نفسه لم ير من واجبه أن يمدّ إليه يد المعونة . أحسّ أن الجميع شرعوا يهجرونه معتبرين أن ثلاثة آلاف وخمسمئة روبل مرتبٌ طبيعي بل رفيع . هو وحده كان يعلم أنه عندما يحسب حساب الظلم الذي ارتُكب بحقه ، وأن مشاحنات امرأته المستمرة ، وأن الديون التي يحملها وهو يعيش فوق وسائله المادية ، هو وحده كان يعلم أن هذا الوضع بعيدٌ عن أن يكون طبيعياً .

في هذه السنة ، نال إجازته في الصيف ، لكي يخفّف من أعباء النفقة ، وذهب مع امرأته ليقضي تلك الاجازة في الريف ، عند والد براسكوفيا فيودوروفنا .

في الريف ، أحسّ ايفان ايليتش ، بعد أن خلا من مشاغله ، ولأول مرة في حياته ، لا بالضجر العميق فحسب بل وبالقلق الذي لايُطاق . فقرّر أنه لايستطيع أن يستمرّ في حياته على هذا المنوال وأن عليه حتماً أن يتّخذ تدابير حاسمة .

وبعد ليلة من السهاد قضاها يذرع السطح ، عزم على السفر إلى بطرسبرج والقيام بالمساعي الضرورية لكي يحاول الدخول في وزارة أخرى فيعاقب بذلك الذين لم يحسنوا تقديره .

في اليوم التالي سافر إلى بطرسبرج ، رغم اعتراضات زوجته وحميه .

كان هدفه الوحيد من هذا السفر أن يحصل على مركز مرتّبه خمسة آلاف روبل . لم يكن يحرص حرصاً خاصاً على هذه الوزارة أو تلك ؛ كان طابع المهمات التي عليه أن يقوم بها ونوعها قليليْ الأهمية عنده . لم يكن يلزمه سوى مركز ، مركز بخمسة آلاف روبل ، في الإدارة ، في المصرف ، في الخطوط الحديدية ، في مؤسسات الامبراطورة ماري[1] ، حتى في الجمارك ،

---

(١) – مؤسسات الامبراطورة ماري : أنشأت الامبراطورة ماري أم الاسكندر الأول ونيقولا الأول ، مؤسسات للإحسان والتربية . وبعد موتها سنة ١٨٢٨ ظلت هذه المؤسسات تحمل اسمها وتكوّن دائرة خاصة .

على شرط أن ينال خمسة آلاف روبل وأن يترك هذه الوزارة التي لم يُقدَّر فيها حقّ قدره.

وتُوِّج سفر ايفان ايليتش بنجاح غير عادي وغير متوقع. أحدُ أصدقائه، «ايلين» دخل مقصورته في «كورسك»، مقصورة من الدرجة الأولى وأعلمه عن البرقية التي تلقاها حاكم كورسك والتي تدور حول تغيّر سيحدث في الوازرة في مدى بضعة أيام. سوف يُعيَّن ايفان سيمونوفيتش مكان بيير ايفانوفتش.

فضلاً عن التأثير الذي ربما يكون لهذا التغيير في مصائر روسيا، فقد كان له أهمية خاصة لدى ايفان ايليتش. وصل الى السلطة رجلٌ جديد، هو بيير بيتروفتش، ومعه صديقه، زاكار ايفانوفتش؛ وكان هذا صديقاً ورفيقاً لايفان ايليتش.

في موسكو، تأكّد النبأُ. فلدى وصول ايفان ايليتش الى موسكو، ذهب للقاء زاكار ايفانوفتش، وحصل منه على وعدٍ بتعيينه في مركز حسن في وزارة العدل.

بعد أسبوع، أبرق لزوجته:

«زاكار في مكان «ميلر» وسوف أُعيَّن عند أول قرار.

بفضل هذا التغير حصل ايفان ايليتش فجأة في وزارته القديمة على مركز رفعه مرتبتين فوق زملائه القدامى؛ خمسة آلاف روبل المرتّب وثلاثة آلاف وخمسمئة روبل نفقات الانتقال. كان ايفان ايليتش سعيداً كل السعادة ونسي الغيظ الذي كان يكنّه لأعدائه القدامى وللوزارة.

عاد ايفان ايليتش إلى الريف، مرحاً، راضياً كما لم يكن من قبل. وكانت براسكوفيا فيودوروفنا سعيدة أيضاً، وسادت هدنةٌ بين الزوجين. روى ايفان ايليتش كيف لقي الترحيب في بطرسبرج، وكيف أُهين أعداؤه، فهم يتملّقونه الآن ويحسدونه، كما روى كم كان محبوباً في بطرسبرج.

أصغت إليه براسكوفيا فيودوروفنا، وتظاهرت بأنها صدّقت كلّ ماقاله، واكتفت بتخطيط المخطّطات حول إقامتهم في المدينة حيث سيسكنون. ولاحظ ايفان ايليتش بفرح أن هذه المخططات هي أيضاً مخطّطاته، وأنهما اتّفقا من جديد، وأن حياته استأنفت، بعد الأزمة، مجراها السار والصحيح كلّ الصحة.

لم يُقم ايفان ايليتش طويلاً في الريف. كان عليه أن يتسلّم واجبات منصبه في العاشر من أيلول، وفضلاً عن ذلك، كان عليه أن يترك منزله ويستقرّ في مقرّ جديد، وأن يشتري كثيراً من الأشياء، وأن يعطي أوامره، وبالاختصار، عليه أن ينظّم حياته وفقاً لمشروعاته التي تتوافق تماماً تقريباً مع رغبات امرأته.

الآن وقد سُوِّي كلُّ شيء بنجاح، الآن وقد تفاهم جيداً مع امرأته التي لم يكن يراها إلا قليلاً، غدت علاقاتهما أفضل مما كانت عليه منذ السنة الأولى من زواجهما. كان ايفان ايليتش يستعدّ لاصطحاب أسرته معه، لكنه سافر وحده بناءً على إلحاح أخت زوجته وزوجها اللذين أصبحا على حين غرة لطيفين، ودودين نحوه.

سافر، ولم يفارقه طيبُ مزاجه الذي سبّبه نجاحهُ ووفاقه مع امرأته. عثر على شقة فاخرة، كالتي حلم بها الزوجان بالضبط: غرف استقبال واسعة وعالية بحسب الأسلوب القديم، مكتب للعمل مريح ورسمي، غرف لبراسكوفيا فيودوروفنا وابنتهما، غرفة دراسة لطالب المعهد. كان كل شيء كأنما أُقيم من أجلهم. اهتم ايفان ايليتش نفسه بترتيب المنزل؛ اختار الورق واشترى الأثاث ولاسيما الأثاث القديم اللائق المظهر، وشيئاً فشيئاً وجد كلُّ شيء مكانه المناسب، وقارب المجموع من المثال الذي وضعه لنفسه ايفان ايليتش. وعندما استقرّ نصف استقرار تبيّن أن النتائج تجاوزت توقّعاته، وأدرك الطابع اللائق، الأنيق من غير أن يكون مبتذلاً في الوقت نفسه، الطابع الذي سيتخذه المجموع عندما يتمّ كلُّ شيء. كان إذا نام تصوّر مظهر

صالة الاستقبال. وإذا مرّ بعينيه على الصالون رأى مسبقاً المدفأة والحاجز والرفّ والكراسي الصغيرة متفرّقة هنا وهناك، والصواني والصحون على الجدران، والبرونزيات. كان يبتهج حين يفكر بمفاجأة «باشا» و «ليزا» اللتين تملكان هما أيضاً حسن الذوق في هذه الأشياء. لم تكونا تنتظران مثل ذلك، بالتأكيد. لقد نجح في أن يكتشف ويشتري بسعر رخيص أشياء قديمة تعطي الشقة طابع النبل. وفي رسائله، كان يقلّل من جمال إقامته عن قصد عما هي عليه، وذلك لكي يفاجئهما. كان ذلك كله يشغله إلى حد كبير حتى إنّ وظيفته الجديدة التي كان يحبّها مع ذلك، أخذت تهمّه أقل مما كان يتوقع. وأثناء الجلسات، كان فكره يشردُ لحظات، كان يفكّر في ستائره: أتكون مثناةً أم مستقيمة؟ كان نفاد صبره عظيماً حتى إنه كان يغيّر هو نفسه أمكنة الأثاث ويرخي الستائر. وذات يوم، بينما كان صاعداً السلم ليرى المنجّد الذي لم يفُهمه، كيف كان يريد أن توضع الستائر، زلّت قدمه وسقط، لكنه لما كان قوياً وحاذقاً، تماسك واصطدم جانبه بغلاّقة النافذة. توجّع قليلاً، لكن هذا الألم سرعان مازال.

كان ايفان ايليتش يحسّ طوال هذا الوقت بأنه مرحٌ ومُعافىً. كان يكتب: «أحسّ أن لي خمسة عشر عاماً أقل من عمري». كان يعتقد أنه سينتهي في أيلول، لكن الأشياء امتدت حتى أواسط تشرين الأول. وبالمقابل، كان ذلك فتّاناً: ولم يكن هذا رأيه وحده، بل كان الجميع يقولون له ذلك.

في الواقع، كانت شقته شبيهة بشقق جميع الناس الذين لم يكونوا وافري الغنى والذين يبذلون وسعهم ليتشبّهوا بالأغنياء، لكنهم لايُفلحون إلا في أن يتشبّهوا بعضهم ببعض: الصِبْغ والابنوس والأزهار والسجاد والبرونز، والألوان القاتمة أو اللامعة، جميع الأشياء التي يستعملها أناسٌ من طبقة معينة ليتشبهوا بأناس من طبقة أعلى. كان هذا الشبه، لدى ايفان ايليتش، تاماً جداً حتى أن لاشيء منه جذب الانتباه؛ لكن كل شيء بدا له في منتهى الأصالة. كان يحسّ بالسعادة الكاملة عندما يذهب للقاء ذويه في

المحطة، وعندما يصطحبهم إلى منزله فيفتح باب البهو المزدان بالورود الخادمُ بربطته البيضاء، وعندما يدخلون الصالونات ثم مكتب العمل وهم يطلقون صرخات الإعجاب؛ قادهم إلى جميع الأماكن، متذوّقاً ثناءهم، مشرقاً بالفرح. وفي المساء، أثناء تناول الشاي، عندما سألته براسكوفيا فيودوروفنا بين أسئلة أخرى، كيف سقط عن السلم، انفجر ضاحكاً وقلّد سقوطه وارتعاب صاحب النجد.

– إني لاأمارس الرياضة عبثاً؛ غيري كان سيُقتل، أما أنا فلم أُصَبْ إلا بضربةٍ خفيفة تؤلمني إذا لُمست. لكن ذلك أخذ يزول ولم يبق سوى آثار اللطمة.

أخذوا يعيشون إذن في مسكنهم الجديد الذي تبين أنه تنقصه غرفةٌ، كما يظهر دائماً عندما يستقرّ الناس في سكناهم نهائياً. ولم يكن ينقص المرتّب الجديد سوى القليل من الأشياء، نحو خمسمئة روبل؛ لكن الأمور تسير سيراً حسناً. ولا سيما في الأزمنة الأولى عندما لم يكن كل شيء قد انتهى بعد، وكان لابد من الانشغال بالشراء، والتوصية والنقل. كان كلا الزوجين جدّ سعيد وإن وقعت بعض الاختلافات الطفيفة، فقد كان هناك أشياء كثيرة يجب أن تنجز بحيث كانت الأمور تُسوّى دون كبير خصام. فإذا لم يكن بينهما ماينبغي أن يُسوِّى دبَّ المللُ وشعرا بشيءٍ ينقصهما. لكن العلاقات والعادات الجديدة ملأت حياتهما.

كان ايفان ايليتش يقضي الصباح في المحكمة ويعود للغداء؛ في الآونة الأولى كان حسن المزاج، مع أنه بدا منشغلاً بكل مايمسّ المسكن (أقل بقعة على غطاء الطاولة أو على قماش الأثاث، حبل الستارة المنزوع، كل ذلك كان يغيظه: لقد كلّفه تجهيز المنزل كثيراً من الجهد حتى إن أدنى تلف كان مؤلماً له؛ لكن حياة ايفان ايليتش كانت، على العموم تجري وفقاً للمثل الأعلى الذي خطّه لنفسه: بيسرٍ وسرور وسلامة. كان ينهض في التاسعة، ويتناول قهوته، ويقرأ صحيفته، ويرتدي بعد ذلك بزّته ويقصد المحكمة ويستأنف عمله الذي تعوّده والذي كان يفرغ إليه بسهولة. الملتمسون،

طلبات الاستعلام، الرئاسة، الجلسات العامة، المؤتمرات الإدارية . . . كان عليه أن ينحّي عن هذه المشاغل الواقعَ الحيّ الذي يأتي باستمرار فيشوّش المجرى النظامي لأعمال الوظيفة: كان عليه أن يحرص على ألاّ يكون له مع الناس من علاقات غير التي تدخل في نطاق الوظيفة. مثلاً، يجيئه شخص يطلب معلومات. لايمكن لايفان ايليتش، خارج وضعه الرسمي، أن تكون له أية علاقة معه، لكن إن أمكن لعلاقاتهما المتبادلة أن تعبّر عن نفسها على ورقة بعنوان، فإن ايفان ايليتش، في حدود هذه العلاقات سيفعل مايستطيع، كل مايستطيع حتماً، مراعياً شكليات الصداقة، أي التهذيب. فإذا ماانتهت علاقاتهما الرسمية، انتهت بينهما جميع العلاقات الأخرى. كان ايفان ايليتش يملك إلى أعلى درجة موهبة الفصل الواضح بين شؤون الخدمة وشؤون الحياة الواقعية؛ وتوصل جيداً بفضل ممارسة طويلة، إلى تنمية هذه الموهبة، حتى إنه كان يستبيح أحياناً، كالعازف الماهر، أن يخلط بين العلاقات الإنسانية والرسمية وكأنه يتلاعب تلاعباً. كان يستبيح ذلك لأنه كان يشعر دائماً أنه قادر على تمييز حدود العلاقات الإنسانية إن لزم ذلك، وعلى استبعادها. كان ايفان ايليتش يفعل ذلك بيسر وسرور وسلامة عظيمة، بل وبحميّة. كان يدخّن في أوقات فراغه، ويشرب الشاي، ويتحدث قليلاً في السياسة وفي المسائل العامة، وفي اللوائح ولاسيما التعيينات. كان يعود إلى منزله متعباً جداً، لكن مع رضا العازف الماهر الذي نفّذ تنفيذاً حسناً دوره كعازف ڤيثار في الاوركسترا. وكانت الأم وابنتها تخرجان، من جهتهما، وتستقبلان الزوار، وكان الولد يذهب إلى المعهد، ويعمل في المنزل مع مدرّسيه، ويحفظ جيداً مايُعطى في المعهد. كان كل شيء يسير سيراً حسناً.

بعد الغداء، كان ايفان ايليتش إن لم يكن عندهم ناسٌ، يقرأ أحياناً كتاباً كثر الكلامُ عليه، وفي المساء، كان يعكف على العمل، أي أنه كان يدرس الإضبارات، باحثاً عن القانون الذي يجب تطبيقه، ويقارن بين

الشهادات. كان يفعل ذلك دون ضجر ولا لذة. فإذا ضجر أمكنة اللعب بالورق، وإذا لم يلق شركاء في اللعب آثر أن يعمل على أن يبقى عاطلاً أو آثر أن يتحدث مع براسكوفيا فيودوروفنا. وكانت لذتُه الكبرى تلك الأغدية التي يدعو إليها بعض السيدات وبعض الرجال من علية القوم: كانت هذه الاجتماعات شبيهة بجميع الاجتماعات التي من هذا النوع، كما أن صالون ايفان ايليتش كان شبيهاً بجميع الصالونات.

بل إنه دعا مرةً إلى سهرةٍ رقَصَ الناسُ فيها. كان ايفان ايليتش مسروراً جداً، لكن جرى خلافٌ بينه وبين امرأته حول الحلوى والسكاكر. كانت لبراسكوفيا فيودوروفنا خطتُها، لكن ايفان ايليتش أصرّ أن يشتري ذلك كله من عند بائع حلوى غالي الثمن؛ وأوصى على كمية زائدة من الحلوى فبقي منها وبلغت قائمة البائع خمسة وأربعين روبلاً. كان الخلاف شديداً وكريهاً حتى إن براسكوفيا فيودوروفنا نعتتْ زوجها بأنه غبيّ ومغفّل، حينئذ أمسك رأسه بيديه، وذكر في فَوْرته الطلاقَ. لكن السهرة نجحت. حضرتها نخبةُ المجتمع، وراقص ايفان ايليتش الأميرة تروفونوفا، أخت المؤسسة الشهيرة لجمعية الإحسان «أزِلْ عنائي».

كانت المتعة التي يستشعرها ايفان ايليتش في ممارسة واجباته الوظيفية متعةً قائمة على حب الذات؛ كانت مخالطاته الإجتماعية ترضي غروره، لكن أفراحه الحقيقية كانت تلك التي يتذوقها في «الهويست». وكان يقرّ بأنه، مهما يحدث، ومهما تكن المكدّرات، يرى فرحه الأقصى الذي يسطع كالشمعة فوق جميع الأفراح الأخرى، هو أن يجلس إلى مائدة اللعب مع لاعبين ماهرين، شركاء مستقيمين، للعبة «هويست» بأربعة لاعبين (لأن من الصعب، إذا كانت بخمسة لاعبين، الانسحاب عندما يأتي دورك وإن تظاهرت بالرضا) وأن يلعب لعباً جاداً وذكياً (إذا كان محظوظاً). ثم أن يتعشى وأن يشرب كأساً من الخمر. وبعد الهويست، ولاسيما إذا كان الربح قليلاً (كان الربح الكثير كريهاً عليه). كان ايفان ايليتش ينام وهو في استعداد

مزاجي بالغ السعادة.

هكذا كانت تمرّ حياتهما؛ كانا يريان نخبة المجتمع، ويستقبلان شخصيات هامة، وشباباً.

كان الأب والأم والبنت متّفقين كل الاتفاق فيما بينهم حول اختيار علاقاتهم، وحتى دون أن يتشاوروا بهذا الصدد، كانوا يستبعدون أولئك الأقرباء الفقراء، وأولئك الأصدقاء الرقيقي الحال الذين يُهرعون إلى صالونهم المزدان بالأواني الصينية، وهم ممتلئون باللطف. وسرعان ماكفّ هؤلاء الناسُ الصغار عن تراكضهم إليهم، ولم يعد لآل غولوفين من علاقة سوى علاقتهم بنخبة مختارة. كان الشباب يغازلون «ليزا» وأخذ «بيتر يشتييف» ابن «دمتري بيتريشييف» الوارث الوحيد لثروته، وقاضي التحقيق، يغازلها بمثابرة شديدة حتى إن ايفان ايليتش تشاور هو وبراسكوفيا فيودوروفنا: ألم يحن الوقتُ لتنظيم نزهات بالعربات أو عرضٍ للهواة؟

هكذا كانوا يعيشون. كان كل شيء يجري بانتظام ويسير سيراً حسناً.

-٤-

كان الجميع في صحة حسنة. ولايمكننا في الواقع أن نعدّ مرضاً ذلك المذاق الغريب الذي كان يحسّ به أحياناً ايفان ايليتش في فمه وذلك الضيق الذي يشعر به، كما يقول، في الجهة اليسرى من صدره.

لكن كان يقع أن هذا الإحساس بالضيق يغدو أشد إجهاداً، لم يكن ألماً بعد لكنه كان ثقلاً مستمراً، وساءَ مزاجُ ايفان ايليتش. وسوء المزاج هذا الذي لم يكفّ عن التنامي، مالبث أن كدّر الحياة السائغة والسهلة التي كانت تحياها أسرةُ «غولوفين». غدت المخاصمات بين الزوج والمرأة أكثر تكراراً، ولم يكن التوصل إلى إنقاذ المظاهر على الأقل ممكناً إلا بشقّ النفس. وتكررت المشاحنات ولم يبق بينها سوى جزيرات صغيرة لايقربها الزوجان

إلا في لحظات قصيرة من الراحة. أخذت براسكوفيا فيودوروفنا تقول، ولايخلو ذلك من الحق الآن، إن زوجها ذو طبع صعب. كانت تضخم الأشياء على عادتها وتقول: إن طبعه كان كريهاً دائماً وأنها كان لابدّ من طيبتها لتتحمّله طوال عشرين عاماً. والحق أنه هو الذي أصبح الآن يشرع في المشاحنات. كان يبدأ تذمّره قبل أن يجلس إلى المائدة، وغالباً قبل أن يتناول حساءه. فتارةً من صحن مثلومٍ، وتارة أخرى من طبقٍ يبدو له سيئاً، وتارةً من ابنه الذي وضع مرفقيه على المائدة، وتارة أخرى من زينة شعر ابنته. كان يتصدّى دائماً لبراسكوفيا فيودوروفنا. كانت هذه تردّ عليه في البدء وتقول له أشياء غير مستحبّة؛ لكنه استشاط غضباً مرة أو مرتين في بداية الغداء إلى حدّ أدركت معه أن ذلك نتيجة حالة مرضية أثارها الطعام، فتمالكت نفسها: لم تعد تجيب واكتفت بتعجيل الغداء. كانت تعتز اعتزازاً عظيماً بصبرها. وإذ قرّرت أن لزوجها طبعاً كريهاً وأنه سبّب شقاء حياتها، تحنّنت على مصيرها هي. وكانت كلما أشفقت على ذاتها ازدادت كرهاً لزوجها. فأخذت تتمنّى موته، لكن هذا الموت كان سيحرمها من مرتّبات ايفان ايليتش، فتزداد حنقاً. كانت تعدّ نفسها شقية إلى حدّ هائل لأن موت زوجها لم يكن ليخلّصها. كانت تغتاظ وتخفي غيظها فلا يجعله ذلك إلا أشدّ لذعاً.

بعد مشاحنة بدا ايفان ايليتش أثناءها ظالماً شديد الظلم، وأقرّ بعدها، عند الاستيضاح الذي تلا المشاحنة، أنه أصبح في الواقع سريع التهيّج، وأن ذلك مَرَضيّ، قالت له إن عليه أن يعالج نفسه لأنه مريض، وطلبت إليه أن يذهب ويستشير طبيباً شهيراً.

وقصد الطبيب. جرى كل شيء كما كان يتوقّع وكما يجري ذلك دائماً. انتظار طويل، ملامح رسمية، متصنّعة، يعرفها جيداً، فكذلك كان يتصرّف في المحكمة؛ كشف الصدر، أسئلة اعتيادية، تتطلب بعض الأجوبة المحدّدة سلفاً والتي لاجدوى منها، مظهر الوقار المتعالي الذي يعني: أنتم ماعليكم إلا أن تطيعونا وسنسوّي كلّ شيء؛ نحن نعلم جيداً، دون أدنى

شك، كيف نسوّي الأشياء، بالطريقة نفسها دائماً، مهما يكن المريض. كل شيء كان يجري تماماً كما يجري في المحكمة. فكما أنه كان يمثّل ملهاةً أمام المتهمين، كان الطبيب هنا يمثّلها أمامه.

قال الطبيب:

- هذا وذاك يدلاّن على أنك مصاب بهذا الشيء وذاك، لكن في الحالة لايُثبت فيها التحليلُ ذلك؛ ينبغي الافتراض أنك مصاب بهذا الشيء وذاك، وإذا افترضنا... حينئذ.... الخ.

لم يكن ايفان ايليتش مشغولاً إلا بمسألة واحدة: هل كان في ذلك خطرٌ أم لا؟ لكن الطبيب تجاهل هذه المسألة التي في غير مكانها، فهي من وجهة نظره مسألةٌ لاجدوى منها ولامجال لبحثها: كان المقصود فقط أن يزن الاحتمالات: كلية عائمة، نزلة مزمنة، زائدة دودية... لم تكن حياة ايفان ايليتش موضع الخلاف، بل كان المقصود هو النقاش بين الكلية العائمة والزائدة الدودية. لكن الطبيب حسم النقاش ببراعة لمصلحة الزائدة، مشيراً من ناحية أخرى أن تحليل البول يمكن أن يقدّم معطيات جديدة وأن القضية في هذه الحالة سيُعاد النظر فيها. كان ذلك العملية نفسها تماماً، كلمة كلمة، العملية التي نفذّها ايفان ايليتش آلاف المرات ببراعة عظيمة على المتهمين الذين كانوا يمثلون أمامه. لم تكن خلاصة الطبيب أقل تألقاً، ورمى المتهّم، من فوق نظارته، بنظرة منتصرة، فرحةٍ تقريباً. استنتج ايفان ايليتش من هذه الخلاصة أن الأمور سيئة. بالنسبة الى الدكتور، وبالنسبة إلى جميع الناس ربّما، لم يكن لذلك من أهمية، أما بالنسبة إليه شخصياً فالأمور سيئة جداً. وهذا الاستنتاج أذهل ايفان ايليتش بألم وأيقظ فيه شعوراً عميقاً بالشفقة على نفسه وبالكره للدكتور الذي لم يكترث لشيء بهذه الأهمية.

لكنه لم يقل شيئاً؛ نهض ووضع المال على الطاولة، وتلفّظ وهو يتنهّد:

- نحن المرضى، غالباً مانطرح عليكم أسئلةً ناشزة... ومع ذلك، هل هذا المرض خطيرٌ أم لا؟

رماه الدكتور بنظرة قاسية عبر نظارته وكأنه يقول: « أيها المتهم، إذا لم تلزم حدود الأسئلة التي نطرحها عليك، فسوف أُضطر إلى إخراجك من صالة الجلسات. » قال الطبيب:

قلتُ لك ما رأيتُ قوله ضرورياً ومناسباً. وسوف يكمّل التحليلُ فحصي.

حيّاه الدكتور.

خرج ايفان ايليتش ببطء، وصعد بحزن زلاجته وأمر بإيصاله المنزل. وطوال الطريق كلها لم يكفّ عن التفكير في كلمات الطبيب، جاهداً في ترجمة العبارات العلمية المعقدة والغامضة، إلى لغة سهلة لكي يعثر فيها على الجواب عن سؤاله: هل حالتي خطيرة، خطيرةٌ جداً، أو أنها ليست شيئاً حتى الآن؟ وبدا له أن كلمات الدكتور كانت تعني أن حالته سيئة جداً. بدت الشوارعُ حزينة لايفان ايليتش؛ كانت العربات حزينة، والبيوت والمارّة والدكاكين حزينة. وبدا الألمُ الذي كان يستشعره، ذلك الألم البهيم، العنيد، الذي لم يتركه لحظةً، بدا له أنه يتّخذ، من جراء جُمل الدكتور الملتبسة، دلالةً جديدة، أكثر جدّية. أخذ ايفان ايليتش الآن يلاحظ هذا الألم بشعور جديد، مؤلم.

روى كل شيء لأمرأته عند عودته إلى المنزل. أصغت إليه هذه؛ لكن ابنتها دخلت، في منتصف روايته، وقبّعتها على رأسها: كانت ستخرج مع أمها. جلست وبذلت وسعها لتصغي إلى هذه القصة المملّة، لكنها لم تطق صبراً، لاهي ولا أمها أيضاً.

قالت هذه لزوجها:

– حسناً! أنا مسرورة جداً، وعليك الآن أن تأخذ الدواء بانتظام. أعطني الوصفة، سوف أُرسل جيراسيم إلى الصيدلية.

وخرجت لترتدي ثيابها.

تكلم دون توقف مدة بقائها في الغرفة، تنفس الصعداء عندما خرجت. قال:

- حسناً! لعل ذلك مازال شيئاً غير ذي بال، في الواقع.

تناول الأدوية، ونفّذ تعليمات الدكتور التي عدلّها على كل حال بحسب نتائج تحليل البول. لكن حدث حينئذ التباس في هذا التحليل وفي التدابير التي يجب أن تتلوها. إذ لم يكن ممكناً بلوغ الدكتور نفسه؛ وبدا أنه قد نُفِّذ شيءٌ آخر غير ماأمر به الدكتور، أو أنه أخطأ، أو أنه لم يقل كلّ شيء.

مهما كان الأمرُ، فقد أخذ ايفان ايليتش ينفّذ بدقة جميع التعليمات ووجد في ذلك بعض العزاء، في الآونة الأولى.

كان همّ ايفان ايليتش الرئيسي، منذ زيارته الدكتور، هو أن يتبع بدقة توصياته المتعلقة بالصحة والأدوية وأن يراقب بإمعان ألمه وجميع وظائف عضويّته. تركزت اهتمامات ايفان ايليتش في الأمراض والصحة: كان إذا جرى الكلام بحضرته عن المرضى أو الموتى أو الذين شفوا من أمراضهم، ولاسيّما عندما يجري الكلام على مرضٍ شبيه بمرضه، يصيخ السمع وهو يجهد في إخفاء انفعاله، فيسأل ويربط على الفور مايُقال بمرضه هو.

لم يتناقص الألم؛ لكن ايفان ايليتش كان يقنع نفسه بأنه يتحسّن. وتوصل إلى الكذب على نفسه، إلى حدّ إنه صار لايضطرب لشيء. لكنه ماإن يحسّ بما يزعج في البيت أو في الوظيفة، أو في الهويست إذا لم يحالفه الحظ حتى يتفاقم وضعُه على الفور. كان يتحمل قديماً هذه المتاعب قائلاً في نفسه إنه سيسوّي الأشياء ويقاوم وينجح، ويفوز فوزاً ساحقاً في اللعب، أما الآن فإن أقل مضايقة كان تهزّه هزاً وتغرقه في الأسى. كان يقول في نفسه: «كنت في طور الإبلال من مرضي؛ وأخذت الأدوية تفعل فعلها، وها إن هذه المصيبة الملعونة أو هذه المزعجات!..» فتثور ثائرتُه على المتاعب وعلى الناس الذين يسبّبون له هذه المزعجات ويقتلونه؛ ومع أنه أحسّ أن هذا الغضب كان يقتله فإنه لم يستطع مقاومته. كان جديراً به، كما يبدو، أن يرى بوضوح أن هذا السخط على الظروف وعلى الناس يعزّز مرضه وأن عليه، بالتالي، ألا يُعير المتاعب التي تطرأ أيّ انتباه؛ لكنه كان يحاكم بالضبط

ويراقب بانتباه كل مايمكن أن يشوّش هذا الهدوء، وكانت أقل معاكسة تثير حنقه. وما فاقم من حالته أيضاً قراءة كتب الطب وزيارة الأطباء. كان مرضه يزداد سوءاً بانتظام شديد حتى إنه توصل إلى الكذب على نفسه عندما كان يقارن بين يوم وآخر: إذ يبدو الفرقُ حينئذ طفيفاً. لكنه عندما كان يستشير الأطباء كان يبدو له أن حالته تزداد سوءاً، بل وبسرعة كبيرة. وبالرغم من ذلك، لم يكفَّ عن استشارة الأطباء.

في أثناء الشهر نفسه، قصد طبيباً شهيراً آخر، قال له الشيء نفسه الذي قاله الطبيب الشهير الأول، لكنه طرح الأسئلة على نحو مختلف. وهذه الاستشارة عزّزت تعزيزاً شكوك ايفان ايليتش ومخاوفه. حدّد صديقُ أحد أصدقائه، وهو طبيبٌ ممتاز، مرضه على نحو مختلف، لكنه، وإن وعده بالشفاء، إلا أنه شوّشه أكثر بأسئلته وافتراضاته وزاد من شكوكه وحدّد الطبيبُ التجانسيُّ مرضه أيضاً بطريقة أخرى وأعطاه دواءً تناوله مدّة اسبوع سراً عن الجميع. لكن بعد مضيّ أسبوع لم يشعر بأي تحسّن، وفقد الثقة في العلاج القديم وفي هذه الطريقة الجديدة، فأحسّ بأن عزمه قد هُدَّ أكثر من ذي قبل. وذات يوم حدّثته سيدةٌ عن الشفاء الذي تُحدثه الأيقونات. وفاجأ ايفان ايليتش نفسه وهو يصغي إليها بانتباه ويتحقق من حقيقة الحدث. رُوِّع من ذلك وتساءل. . . «هل تدنّى ذكائي الى هذه الدرجة؟ كل ذلك حماقات! ينبغي ألا نستسلم للخوف، لكن بما أنني اخترتُ طبيباً فينبغي أن أقتصر على علاجه. وهذا ما سأصنعه منذ الآن. انتهى الأمر الآن. لن أفكّر في ذلك بعد الآن وسأتّبع بدقة علاجاً وحيداً. وسأرى فيما بعد. كفى تردّداً!».

كان سهلاً أن يقول ذلك لكن كان مستحيلاً أن يحقّقه. لم يتخلَّ عنه الوجعُ في جنبه. وبدا الوجع كأنه قد غدا أشد حدّةً وإرهاقاً؛ وغدا المذاقُ الذي يحسّه في فمه أشدّ غرابة، وخُيِّل إليه أن فمه تفوح منه رائحةٌ أنتنُ: وانحطت قواه وتناقصت شهوتُه إلى الطعام. كان من غير الممكن أن يُخطىء

في ذلك: كان يجري فيه شيءٌ رهيب، شيءٌ جديد أهمُّ من كل ماوقع حتى الآن لايفان ايليتش. وكان وحده يعلم ذلك؛ أما الذين كانوا يحيطون به فلم يكونوا يفهمون ذلك أو لم يكونوا يريدون أن يفهموه، وكانوا يتصوّرون أن كل شيء يسير في العالم كما كان يسير في الماضي. وهذا ماكان يؤلم ايفان ايليتش أكثر من أي شيء آخر.

كانت أسرته وزوجته وابنته جد منهمكين في موسم الحياة المدنية فلم يفهموا شيئاً، كان يرى ذلك، وكانوا يغضبون حين يرونه شديد التطلّب والحزن، وكأن ذلك من غلطه. كان يستشف أنه يضايقهم وإن كانوا يجهدون في إخفاء ذلك، وأن امرأته اتخذت إزاء مرضه قاعدةً للسلوك تراعيها مهما قال أو فعل ويتجلى موقفها كالآتي:

كانت تقول لأصدقائها: «تعلمون أن ايفان ايليتش عاجز عن المتابعة الدقيقة للعلاج الموصوف، كما يفعل سائرُ الناس، فهو يتناول اليوم الدواءَ ويأكل ماأمر به الطبيب وينام؛ أما في اليوم التالي فهو ينسى أن يتناول دواءه، إذا لم أسهر على ذلك، ويأكل سمك الحَنْش (وهو ممنوع عليه) ويظل يلعب بالورق حتى الواحدة صباحاً.».

فيردّ ايفان ايليتش:

– متى وقع لي ذلك؟ مرة واحدة، عند «بيير إيفانوفتش».

– مالك! ومع «شيبيك»!

– لم أكن أستطيع النوم لشدّة الألم.

– هناك دائماً، بالطبع، سببٌ ما. ولكنك لن تشفى أبداً هكذا وأنت تعذّبنا.

كان موقف براسكوفيا فيودوروفنا إزاء مرض زوجها يتلخّص في أن تُعلن للجميع، ولايفان ايليتش نفسه، أن مسؤولية هذا المرض إنما تقع عليه، وأن هذا المرض ماهو إلا واحد من تلك المكدّرات العديدة التي يسبّبها لامرأته. وكان ايفان ايليتش يرى أنها تتصرف هكذا دون أن تريد، لكنه لم يكن يشعر من جرّاء ذلك بأنه أحسن.

في المحكمة، كان ايفان ايليتش يلاحظ، أو خُيِّل إليه أنه يلاحظ موقفاً لايقلّ غرابةً إزاءه: فتارةً يبدو له أن الناس يمعنون النظر إليه وكأنه رجل سيترك مركزه عمّا قريب؛ وتارة أخرى يأخذ أصدقاؤه في السخرية من مخاوفه وكأن ذلك الشيء الفظيع والمروّع، ذلك الشيء الغريب الذي استقرّ فيه، الذي ينخره أبداً والذي يجرّه جراً إلى حيث لايدري، كأن ذلك الشيء لم يكن سوى موضوع مسلّ للمزح. وكان «شوارتز» على وجه الخصوص هو الذي يثير ثائرته، «شوارتز». الذي كان يذكّره، بهيئته المرحة، وحيويته، ومظهره اللائق، ماكانه هو نفسه قبل عشر سنوات.

يأتي الأصدقاء ليلعبوا جولةً بالورق، فيجلسون الى مائدة اللعب، ويُوزَّع الورقَ؛ يجمع ايفان ايليتش أوراق الديناري: معه سبع. قال الشريكُ:

– بلا أوراق رابحة.

ويعلن عن ورقتين ديناري.

ماذا يلزمه أيضاً؟ ينبغي أن يشعر أنه مرحٌ، مفعمٌ بالطاقة: إنه فوزٌ ساحق. لكن ايفان ايليتش يحسّ فجأة بذلك الألم العُضال، ذلك المذاق الشنيع في فمه. ويبدو له أن من الغباء أن يبتهج بفوزه في الوضع الذي هو فيه.

وينظر إلى ميشيل ميخايلوفتش، شريكه، الذي يضرب المائدة بيد صلبة، ويمتنع بأدب وتسامح عن لمّ المحصول، لكنه يدفعه نحو ايفان ايليتش ليتيح له لذّة تناوله دون أن يتعب، بل دون أن يكلّف نفسه مدّ يده. ليفكّر ايفان ايليتش: «هل يتصوّر أنني بلغت من الضعف حداً لاأقدر معه على مدّ يدي». وينسى أن يعدّ الأوراق الرابحة، ويقاطع شريكه ويفوته الفوز بضربات ثلاث. الأسوأ أن نرى كم تألم ميشيل ميخايلوفتش من ذلك بينما ظلّ هو غير مبُال. والرهيب أن يفكّر في سبب هذه اللامبالاة.

يلاحظ الجميع أنه يتألم فيقولون له:

- إن كنتَ متعباً فنحن نستطيع أن نوقف اللعب. استرحْ.

يستريح؟ لا، إنه ليس متعباً البتّة. وسوف تُنهى اللعبة. الجميع مقطّبون، صامتون. ويدرك ايفان ايليتش أنه هو الذي يشيع ذلك فيهم، لكنه لايستطيع أن يُبدّد هذا الجو الكئيب. فيتعشّون ويتركونه. ويبقى ايفان ايليتش وحده، مع هذا الشعور الواضح وهو أن حياته قد ذبلت وأنه يسمّم حياةَ الآخرين وأن السم ينفذ إليه على نحو يزداد عمقاً.

عليه أن يمضي الى السرير بهذا الشعور وبذلك الألم الجسدي، وبرعبه، وأن يظل، في الغالب، دون أن ينام، جزءاً كبيراً من الليل. وعليه، في صباح اليوم التالي، أن ينهض من جديد، وأن يرتدي ثيابه، وأن يقصد المحكمة ويتكلم ويكتب، أو أن يبقى في بيته ليراقب جريان الساعات التي كلُّ ساعةٍ منها عذاب. كان مضطراً أن يعيش هكذا على حافة الهاوية، وحيداً تماماً، دون أيّ كائن يفهمه ويرثي له.

-٥-

دام ذلك شهراً، شهرين. وقبل رأس السنة، زارهم أخو براسكوفيا فيودوروفنا الذي نزل عندهم لبضعة أيام. كان ايفان ايليتش في المحكمة وامرأته في السوق تتبضّع. وعندما دخل مكتبه وجد أخا زوجته، وهو رجل متين البنية، دموي المزاج، يفك حقائبه. ولدى سماعه خطوات ايفان ايليتش، رفع رأسه ونظر إليه لحظة دون أن يفوه بكلمة. كشفت هذه النظرةُ الوجيزة كلَّ شيء لايفان ايليتش. فتح أخو زوجته فمه، لكنه حبَسَ التعجّب الذي كان سينبعث من شفتيه. هذه الحركةُ أكدّت النظرةَ.

- مالك! هل تغيرتُ؟

- نعم... قليلا.

وبالرغم من كل مافعله بعد ذلك ايفان ايليتش ليسوق الحديثَ إلى هيئته، فإن أخا زوجته كان يتملّص من أسئلته. عادت براسكوفيا فيودوروفنا فلحق بها أخوها. أغلق ايفان ايليتش الباب بالمفتاح وأخذ يتفرّس في نفسه، في المرآة، يتفرّس في وجهه كاملاً أولاً، ثم في صفحة وجهه. وتناول إحدى صوره التي تصوّرها مع زوجته وقارنها بوجهه في المرآة. كان الفرقُ عظيماً. ثم عرّى ذراعيه حتى المرفقين، وفحصهما، وردّ كميّه، وجلس على الديوان، وغدا أكثر تجهّماً من الليل.

قال أخيراً:

- لاينبغي ذلك، لاينبغي ذلك!

نهض فجأة، واقترب من الطاولة. وفتح ملفّاً وأخذ يقرأ، لكنه لم يستطع أن يستمر في قراءته. فتح الباب ودخل غرفة الاستقبال. كان باب الصالون مغلقاً؛ اقترب منه على رؤوس أصابعه وأصغى.

كانت براسكوفيا فيودوروفنا تقول:

- كلا، أنتَ تبالغ.

- أنا، أنا أبالغ؟ ألا ترين أنه ميت؟ انظري إلى عينيه؛ إنهما منطفئتان. لكن ماذا أصابه؟

- لا أحد يعرف. قال نيكولاييف (وكان هذا طبيباً آخر أيضاً) شيئاً لم أفهمه. وقال ليتسيتيتزكي (وكان طبيباً مشهوراً) العكس...

عاد ايفان ايليتش إلى غرفته، واستلقى وأخذ يفكّر: «الكلية، الكلية العائمة». تذكّر كل ماشرحه له الأطباء: كيف انفصلت وكيف أخذت تعوم. وحاول بجهد خياله أن يمسك بها، أن يبقيها في موضعها، أن يثبتها: لايلزم سوى القليل من أجل ذلك، كما بدا له. قال في نفسه: سوف أذهب لأرى بيير بيتروفتش (كان زميلاً صديقُه طبيب). قرع الجرس وأمر بإعداد العربة وتهيأ للخروج.

سألته امرأته وقد عبّر وجهها تعبيراً حزيناً هادئاً على نحو فريدٍ غير

مألوف:

- أين تذهب، ياجان؟

غاظه هذا الطيبُ الذي لم يتعوّده.

- سأذهب إلى منزل بيير بيتروفتش.

قصد هذا الزميل الذي صديقُه طبيب، وذهبا معاً الى ذلك الطبيب. وجداه في منزله وتحدّثا طويلاً.

وحين فحص بالتفصيل من وجهة النظر التشريحية والفيزيولوجية ماكان يجري فيه بحسب رأي الطبيب، فهم.

هناك شيء صغير، شيء صغير جداً في زائدته. لكن يمكن تسوية ذلك. ينبغي أن تُدعَّم طاقةُ عضوٍ، ويُنقَص نشاطُ عضوٍ آخر، وحينئذ تُحَلُّ المشكلة ويعود كلُّ شيء إلى نصابه. تأخّر قليلاً عن الغداء. أكل، وتحدّث بمرح، لكنه لبث طويلاً ولم يستطع أن يزمع على البدء بالعمل. وأخيراً مضى إلى مكتبه وشرع على الفور في العمل. أخذ يقرأ الملفّ ويدرسه، لكن الشعور بأن له قضيةً هامةتمسّه عن كثب، سيعكف عليها بعد ذلك، هذا الشعور لم يُفارقه. وعندما انتهى من عمله، تذكّر أن هذه القضية الشخصية هي حالة زائدته. لكنه لم يَجْر وراء هذه الفكرة وذهب إلى الصالون لتناول الشاي كان ثمّة مدعوّون: كانوا يتحدّثون، ويعزفون على البيانو، ويغنّون؛ وكان قاضي التحقيق، الخطيب المنتظر، هنا أيضاً. قضى ايفان ايليتش، كما لاحظتْ امرأته، هذه الأمسية، بمرحٍ أكثر من عادته؛ لكنه لم ينس لحظةً واحدة أن عليه التفكير جدّياً بزائدته. وفي الحادية عشرة استأذن المدعوين وانسحب إلى غرفته. كان ينام وحده منذ مرضه، في غرفة صغيرة قرب مكتبه. خلع ثيابه وتناول روايةً لزولا؛ لكنه لم يقرأها. أخذ يفكّر. كان شفاء الزائدة الذي شدّ ما أمّله يتمّ في خياله، بالامتصاص والتمثّل، فيعود عملُ أعضائه إلى سابق عهده. قال في نفسه: نعم، هذه هي الحال بعينها، لكن يجب أن نمدّ يد العون إلى الطبيعة». تذكّر الدواء الذي ينبغي أن يأخذه،

فنهض وأخذه واستلقى على ظهره، وهو يبذل جهده في مراقبة آثاره السعيدة ومقاومته للداء. «يكفي أن أتناوله بانتظام وأن أتحاشى كل تأثير مؤذٍ؛ أحسّ أني تحسنت قليلاً، بل كثيراً». وجسّ جانبه، فلم يشعر بأي ألم تحت يده. «نعم، إني لاأحسّ بشيء؛ تحسنت الأمور كثيراً، في الحقيقة.» أطفأ الشمعة، وانقلب على جانبه. «نعم، إن ذلك يُمتصّ، وكل شيء ينتظم.

لكنه عاد فأحسّ فجأة بذلك الألم المعهود، القديم، المألوف، الخفيّ، النافذ، العنيد، المقيم، الجسيم. فأصابه غثيانٌ ودار رأسُه. قال: «ياالهي! يا الهي! هوذا الألمُ من جديد، ولن يكفّ أبداً!» وعلى حين غرّة، تمثّل له الأمر بمظهر مختلف تماماً. فكّر: «الكلية، الزائدة، كلا، الأمرُ لايتعلّق بها، بل بالحياة. . . وبالموت. نعم كنتُ أحيا، وحياتي تمضي؛ إنها تمضي، ولايمكنني أن أستبقيها. نعم، لماذا أكذب على نفسي! أليس واضحاً للناس جميعاً ولي أيضاً أنني أموت. وأن المسألة مسألةُ أسابيع، أيام. . . وربما في هذه اللحظة بالذات؟ كان النورُ قبل ذلك، والآن جاءت الظلماتُ. كنتُ هنا؛ والآن إلى أين أنا ذاهبٌ؟ إلى أين؟» تملكه البردُ، وتوقّف نفَسُه. ولم يعد يسمع سوى دقّات قلبه.

«أنا لن أكون، فما الذي سيكون حينئذ؟ لن يكون شيءٌ. لكن أين سأكون حين تنقضي كينونتي؟ أهو الموتُ حقاً؟ لا، لاأريد». استوى جالساً وأراد أن يشعل شمعته، وتلمسّها بيدٍ مرتجفة، فقلب الشمعدان وارتمى على وسائده. «لماذا؟ وماأهميّة ذلك!» كذلك كان يفكّر وعيناه محدّقتان في العتمة. الموت. نعم، هو الموت. وجميعهم لايعلمون ذلك، لايريدون أن يعلموه. إنهم يلعبون (كان يسمع من خلال الباب دويّ أصواتهم وأغانيهم). سيّان عندهم، لكنهم سيموتون أيضاً ياللأغبياء! أنا ذاهب قبلهم، وسيلحقون بي. سيموتون جميعاً أيضاً. لكنهم يبتهجون الآن، فيالهم من حيوانات بلهاء!» «خنقه الغيظ. كان ثقلٌ هائلٌ يسحقه. وليس ممكناً أن يُقدَّر على الجميع معرفةُ هذا الرعب الفظيع!» فنهض.

هناك شيءٌ لايسير سيراً حسناً. يجب أن أهدأ وأن أتذكر جيداً كيف وقع ذلك. وأخذ يفكر.

«نعم، بدءُ المرض. صدمتُ علاّقة النافذة. لكن لم يتغيّر شيء: ظللتُ كما كنت. ثم آلمني ذلك قليلاً، وبعد ذلك اشتدّ الألمُ. ثم جاءت الآلام، والمزاج السيء، والقلق، ثم الآلام أيضاً. واقتربتُ شيئاً فشيئاً من الهاوية. تضاءلت قواي. وتزايد قربي من تلك الهاوية. لم يبق في عيني من ضوء إنه الموت وأنا أفكر في الزائدة. أنا أفكر في إصلاحها. وهذا هو الموت. أهو الموتُ حقاً؟».

غمره الخوفُ مرة أخرى. أخذ يلهث. انحنى وفتّش عن علبة الكبريت، وصدم بمرفقه، طاولة الليل. كانت تضايقه وأوجعته الصدمة. وفي حركة غضبى دفعها وقلبها. وارتمى على ظهره وهو يائس، يلهث، منتظراً الموت.

انسحب الزوّار في هذه الآونة؛ كانت براسكوفيا فيودوروفنا تشيّعهم. سمعت صوت الوقعة ودخلت.

- مابكَ؟

- لاشيء. قلبتُ بالمصادفة...

خرجتْ وعادت بشمعة. كان مستلقياً على ظهره وهو ينفخ نفخاً صاخباً، سريعاً، مثل رجل يركض فرسخاً. حدّد النظر إليها.

- مابكَ، جان؟

- لا... لاشيء. قلبتُ...

وفكّر:

«ماجدوى الكلام! فلن تفهم».

والحقيقة أنها لم تفهم. رفعت الشمعة، وأشعلتها وانصرفت على عجل: كان عليها أن ترافق صديقةً لها. وعندما عادت وجدته في الوضع نفسه، وعيناه في السقف.

- أتحسّ أن حالتك أسوأ؟
- نعم.
هزّت رأسها وجلست للحظة.
- أتعلم، جان؟ ألا يجب علينا أن نستدعي ليشيتسكي؟
كان ذلك يعني استدعاء الطبيب الشهير دون النظر إلى النفقة.
ابتسم ابتسامة مريرة وقال:
- لا
بقيت جالسةً لحظة، ثم نهضت وقبّلته في جبينه.
في هذه اللحظة، كان يكرهها بكل قوى نفسه وتحامل على نفسه لكي لايصدّها عنه.
- ليلة سعيدة! ربما أفلحتَ في أن تنام.
- نعم.

-٦-

رأى ايفان ايليتش أنه كان يموت فكان يائساً. كان يعلم في أعماق نفسه أنه كان يموت: لكنه لم يتوصل إلى أن يألف هذه الفكرة، بل إنه لم يكن يفهمها. كان عاجزاً عن فهمها.
إن القياس الذي تعلّمه في كتاب المنطق الذي ألفه «كيوزيوتر»[1]:
كايوس انسان - الناس فانون- وإذن كايوس فانٍ. هذه المحاكمة بدت له صحيحة إن تعلّقت بكايوس لابشخصه. كان كايوس انساناً على العموم، ولابدّ من أن يموت. لكنه ليس كايوس، وليس إنساناً، على العموم؛ إنه مستقل، مستقلّ تماماً عن الكائنات الأخرى: كان «فانيا» مع أمه وأبيه، مع «ميتيا» و «فولوديا»، مع خادمته، ومع الحوذي، ثم مع «كاتنكا»، مع

(١) - استاذ المنطق في برلين ١٧٦٦ - ١٨١٩.

الأفراح كلها، والمشقّات كلها، وحماسات الطفولة والصبا والشباب كلها. أكان كايوس يعرف رائحة تلك الكرة الجلدية المبرقشة التي أحبها فانيا حبّاً جماً؟ أكان كايوس يقبّل يد أمه مثل فانيا؟ أوَمنْ أجل كايوس كان حفيف تنورة أم فانيا الحريرية؟ فانيا؟ وهل كايوس هو الذي احتج في المدرسة بصدد المعجّنات؟ وهل أحبّ مثل فانيا؟ وهل يمكنه أن يرأس جلسةً مثله؟

كايوس، في الواقع، فانٍ، ومن العدل أن يموت. أما أنا، فانيا، ايفان ايليتش، مع جميع أفكاري، وجميع مشاعري فشيء آخر تماماً. ومن المستحيل أن يكون لابدّ من موتي. ذلك جد فظيع. هكذا كان يحسّ.

«إن كان عليّ أن أموت مثل كايوس، فسأعلم ذلك جيداً، وسيقوله لي صوتي الداخلي. بيد أنه لم يقل لي قط شيئاً من هذا القبيل. فأنا وجميع أصدقائي نفهم جيداً أننا مختلفون جداً عن كايوس. وهاأنا ذا الآن. . . هذا مستحيل، والأمرُ مع ذلك هكذا. كيف؟ كيف نفهم ذلك؟».

لم يكن بوسعه أن يفهم ذلك وسعى جهده إلى طرد هذه الفكرة عنه، باعتبارها فكرةً خاطئة، غير طبيعية، مرضيّة، وأن يُحلّ محلّها أفكاراً أخرى، طبيعية وسليمة. لكن هذه الفكرة، أو بالأحرى هذا الواقع كان لايلبث أن يعود لينتصب أمامه.

ولكي ينحّيه كان يستنجد بأفكارٍ أخرى على أمل أن يجد فيها سنداً له. كان يحاول أن يلجأ إلى تلك الحالة الفكرية التي كانت تخفي فيما مضى عن عينيه فكرة الموت. لكن، ياللغرابة! كل ماكان يخفي ويدمّر قديماً الشعورَ بالموت لم يعد له الآن ذلك السلطان. في الآونة الأخيرة، كان ايفان ايليتش معنياً على الخصوص بمحاولة استعادة تلك الحالة الفكرية التي كانت تستر عنه الموت. كان يقول تارة: «سأنصرف إلى عملي. كانت هذه حياتي في الماضي. فيمضي إلى المحكمة طارداً عنه بعيداً الشكوك والتردّدات. ويحادث زملاءه، ويجلس وهو يجيل في الجمهور نظرةً متأمّلة شاردة من جرّاء عادة قديمة، مستنداً بيديه الهزيلتين على ذراع مقعد من السنديان. ثم

ينحني، كعادته، نحو معاونه، ويتبادل وإياه بعض الخواطر بصوتٍ خفيض، ويتناول الملفّ، ثم يرفع عينيه بغتةً ويستوي في مقعده. ويتلفّظ ببعض الكلمات وتبدأ الجلسة. لكن الألم في جنبه يبدأ فجأة عمله غير مبالٍ بالدعوى الجارية، الألم الخفي، العنيد ويحاول ايفان ايليتش جهده أن يصرف عنه فكره، لكنه يستمرّ في عمله، فيجيء وينتصب أمامه لينظر إليه. ويحسّ ايفان ايليتش أنه مشلول، وتنطفى عيناه ويتساءل من جديد: «أليس من شيء حقيقي «غيره»؟.. ويرى زملاؤه ومرؤوسوه بدهشة وحزن أنه هو، القاضي اللامع المحنّك يتشوّش ويرتكب أخطاء. فيستوي في مقعده من جديد ويحاول أن يسيطر على نفسه مُديراً الجلسة كما اتفق له إلى نهايتها، ويعود إلى بيته وبه شعور مؤلم بأن وظيفته كقاضٍ لايمكنها أن تخفي عنه ماودّ لو لم يره، وأن خدمته لايمكنها أن تخلصه من حضوره «هو»، والأسوأ أنه «هو» كان يصرفه عن عمله لاليصنع شيئاً مالكن لينظر إليه فقط، ليشخص إليه؛ ويتألم ألماً لاتعبير له، دون أن يفعل شيئاً على الإطلاق.

كان ايفان ايليتش، في مجهوده للخروج من هذه الحالة، يبحث عن تعزيات أخرى، عن شاشات أخرى؛ وهذه الشاشات تظهر عندما يدعوها، وتبدو للحظة قصيرة كأنها تحميه، لكنها لاتلبث أن تغدو شفّافة، دون أن تختفي، وكأنّ الألم يمرّ خلالها وكأن لا شيء يمكن أن يخفيه.

كان يقع له، في هذه الآونة الأخيرة، أن يدخل الصالون الذي أثّثه، هذا الصالون الذي سقط فيه، والذي من أجله- صار يفكر في ذلك الآن بسخرية مريرة- من أجل تجهيزه ضحّى بحياته (ذلك أنه كان يعلم أن مرضه جاء من الضربة التي أصابته)، دخل ولاحظ شقّاً في خشب الطاولة الملبّك. بحث عن السبب واكتشف أن زخارف الآلبوم البرونزية بارزة. فتناوله وكان عزيزاً عليه، وقد ركّبه بكثير من الحب، فاغتاظ من فوضى ابنته وصديقاتها: كان ممزّقاً والصور مقلوبة. فأعاد الصور بعناية إلى سابق نظامها وقوّم الزوايا النحاسية.

ثم خطر له أن ينقل هذه «التجهيزات» كلها مع ألبوماتها إلى ركنٍ آخر، قرب الأزهار. نادى الخادمَ، وجاءت امرأته وابنته لمساعدته؛ اختلفتا في الرأي وأبدتا اعتراضهما؛ ناقشهما وغضب. لكن كل شيء كان يسير سيراً حسناً، لأنه لم يكن يفكّر (فيه)، ولم يكن يراه.

لكن بينما كان ينقل الطاولة قالت له امرأته:

- انتظر، سيفعل الخدمُ ذلك. وستؤذي نفسك من جديد.

وبغتةً انبعث «هو» عبر الشاشة. رآه. انبعث أمامه، لكنه يرجو أن يختفي «هو» عما قريب. ويصغي إلى نفسه: كان الألم مقيماً يتأكلّه؛ حينئذ لم يعد بوسعه أن ينساه، ويشاهده بوضوح وهو ينظر إليه من فوق الأزهار. لم كلُّ ذلك؟

«هل فقدتُ الحياة حقاً، قرب هذه الستارة. وكأنني مقبل على هجوم؟ أممكن ذلك؟ ماأفظع ذلك وماأغباه! ذلك غير ممكن، لكنه كائن.».

عاد إلى مكتبه. اضطجع وظلّ وحيداً «معه». وجهاً لوجه «معه». ولاعمل له «معه» إلا النظر «إليه»، بينما يتجمّد القلبُ.

- ٧ -

كيف حدث ذلك أثناء الشهر الثالث من مرض ايفان ايليتش، لاسبيل إلى معرفة ماحدث، لأنه تمّ شيئاً فشيئاً، لكنه طرأ، دون أن يلحظه أحد، وأن زوجته وابنته وابنه والخدم والأصدقاء والأطباء، وعلى وجه الخصوص ايفان ايليتش نفسه، قد أدركوا أن أهمية وضعه كلها بالنسبة إلى الآخرين تنحصر في معرفة متى يُخلي أخيراً مكانه، ومتى يخلّص الأحياءَ من الضيق الذي يسببه حضوره، ويتخلص هو نفسه من أوجاعه.

كان نومُه يتناقص. أعطوه الأفيون وحقنوه بالمورفين. لكن ذلك لم يخفف ألمه. إن القلق الخفيّ الذي استشعره في حالة النعاس، في البدء، حمل إليه بجدّته شيئاً من التسرية، لكنه أصبح فيما بعد أشقّ من الألم.

هُيئت له وجباتٌ خاصة بحسب تعليمات الأطباء، لكن هذا الغذاء أخذ يبدو له تفهاً ومقززاً أكثر فأكثر.

ومن أجل خروجه لُجيءَ إلى طريقة خاصة وكان ذلك في كل مرة عذاباً له بسبب عدم الملاءمة والوسخ والرائحة وأيضاً لأنه كان لابدّ له ممّن يساعده.

لكنه استطاع بفضل هذا الأمر الشاق بالذات أن يجد شيئاً من العزاء.

كان «جيراسيم» هو الذي ينظف إناء ايفان ايليتش. وكان فلاحاً فتياً، نظيفاً، سليم الجسم، وقد سمن قليلاً في المدينة. كان مرحاً أبداً، مستوي المزاج. في البدء تضايق ايفان ايليتش من مظهر هذا الرجل النظيف، اللابس على الطريقة الروسية، الذي يقوم بمهمة مثيرة للاشمئزاز.

وذات يوم، وبينما هو يقوم عن كرسيّه ولايجد القوة ليرفع بنطاله سقط على المقعد فأخذ ينظر برعب إلى ذراعيه العاريتين الهزيلتين اللتين ارتسمت عضلاتهما بوضوح. في هذه اللحظة، دخل جيراسيم بمشيته الرشيقة والقوية، ناشراً حوله رائحة جزمته الضخمة المدهونة والهواء البارد. كان عليه قميصٌ نظيف من القطن ووزرة من الكتان الشتوي؛ كان كمّاه المشمّرتان يكشفان عن ذراعين فتيّين وقويتين. اقترب من الكرسيّ المثقوب دون أن ينظر إلى ايفان ايليتش، كابحاً، على نحو ملحوظ، وكلي لايجرح المريض، فرح الحياة الذي أضاء نظرته.

لفظ ايفان ايليتش بضعف:

– جيراسيم!

ارتعد جيراسيم وقد خشي أن يكون ارتكب خطيئة، وأدار بحركة سريعة، نحو المريض، وجهه الفتيّ، الطيّب والبسيط، الذي لم تكد لحيته تطلع.

– فيمَ يرغب سيّدي؟

– هذا كريهٌ عليك، كما أظن. اعذرني. لم أستطع . . .

- ماذا تقول، ياسيدي؟ (لمعت عينا جيراسيم وكشف بابتسامته عن أسنانه البيضاء الفتية) لم لاأتحمل هذا الجهد؟ أنت مريض.

وأتمّ بيديه القويتين والحاذقتين عمله المعهود وخرج وهو يمشي برشاقة. وبعد خمس دقائق عاد بالخطوة نفسها.

ظلّ ايفان ايليتش في مقعده. وقال عندما أعاد جيراسيم الإناء الذي غُسل بنظافة:

- أرجوك، ساعدْني. تعال (اقتربَ جيراسيم). أنهضْني. يصعب علي الوقوف وحدي وقد صرفتُ ديمتري.

دنا جيراسيم منه، وأخذه بين ذراعيه القويتين، وأنهضه بمهارة وهدوء، وسنده بيمنا كان يرفع بنطاله باليد الأخرى؛ وبعد ذلك أراد إجلاسه. لكن ايفان ايليتش طلب منه أن يوصله إلى الأريكة. قاده جيراسيم دون جهد، حتى دون أن يلمسه، بل حمله إلى الأريكة حيث أجلسه.

- شكراً! ماأمهركَ وأنت تفعل هذا! أنت تفعل كلّ شيء... جيداً.

ابتسم جيراسيم مرةً أخرى وأراد أن ينصرف. لكن ايفان ايليتش كان يحسّ بالطمأنينة معه حتى إنه لم يشأ أن يتركه.

- أتعلم! قرّبْ مني هذه الكرسي، أرجوك. لا، هذه، تحت رجليّ. أحسّ براحة أكبر عندما تُرفَع رجلاي.

حمل جيراسيم الكرسيّ، وحطّها بحركة دقيقة، دون أن يصدمها، ووضع فوقها قدمي ايفان ايليتش. بدا لايفان ايليتش أنه يحس بشيء من التخفف عندما رفع جيراسيم قدميه عالياً.

قال ايفان ايليتش:

الأمر أفضل عندما ترتفع قدماي. دسّ تحتهما هذه الوسادة.

أطاعه جيراسيم. رفع من جديد قدميه ووضعهما على الوسادة. ومرة أخرى خُيّل إلى ايفان ايليتش أنه يشعر بشيء من الانفراج عندما كان جيراسيم يمسك قدميه؛ وعندما كان يخفضهما كانت أمورهُ تسوء.

قال له :

- جيراسيم! هل أنت مشغول؟

أجاب جيراسيم الذي تعلّم كيف يخاطب أسياده :

- لا ، سيّدي .

- أما يزال لديك عملٌ؟

- لاشيء خاص . لقد أنهيت كلَّ شيء ولم يبق عليّ إلا أن أقطّع الحطب للغد .

- إذن ، أبقِ قدميّ أكثر ارتفاعاً . . . أتستطيع؟

- لمَ لا؟

رفع جيراسيم قدميه ، وبدا لايفان ايليتش أنه لم يعد يحسّ بأي ألم ، في هذا الوضع .

- والحطبُ للغد .

- لاتقلقْ ، إذا تكرمتَ . فلدينا الوقت الكافي .

طلب ايفان ايليتش من جيراسيم أن يجلس ويمسك بقدميه ، وتحدّث معه . شيءٌ غريبٌ جداً! خيِّل إليه أنه يتحسن مادام جيراسيم يسند قدميه .

بدءاً من هذا اليوم ، كان ايفان ايليتش يدعو جيراسيم لكي يضع قدميه على كتفيه . كان يحب أن يتحدّث معه . وكان جيراسيم يصنع ذلك راضياً ، بمهارة ، وببساطة ، وبطيب يرقّ له قلبُ ايفان ايليتش . كانت القوة وامتلاء الحياة لدى الآخرين تغيظان ايفان ايليتش . لكن نشاط جيراسيم وطاقته لم يكونا ليسخطاه . على العكس كانا يهدّئانه .

كان الهم الرئيسي الذي يعذب ايفان ايليتش هو الكذب ، الكذب الذي ارتضاه الجميعُ دون أن يُعرف السبب ، وهو أنه مريضٌ لامشرفٌ على الموت ، وأن ليس عليه إلا أن يظل هادئاً يُعنى بنفسه لكي يُسوَّى كلُّ شيء . بينما كان يعلم جيداً أنه مهما يفعلوا فلن يجني غير آلام أشد فظاعة ، وغير الموت . كان هذا الكذب يعذّبه ؛ كان يتألم من أنهم لم يشاؤوا أن يقبلوا بما

يراه الجميع جيداً كما يراه هو نفسه، من أنهم يكذبون حين يجبرونه هو نفسه على مشاركتهم هذه الخدعة. هذا الكذب الذي كان يُرتكبَ تجاهه عشية موته، هذا الكذب الذي يُسقط ذلك الحدث الفظيع والجليل، حدث موته، إلى مستوى زياراتهم، وستائرهم، وأعشيتهم، كان شاقاً بشكل فظيع على ايفان ايليتش. شيءٌ غريب! كان في كثير من المرات، على وشك أن يصرخ بهم، وهم يرتّبون من حوله قصصهم الصغيرة: «كفى كذباً! أنتم تعلمون وأنا نفسي أعلم أنني أموت! كفّوا على الأقل عن كذبكم!» لكنه لم يجرؤ قط على التصرف هكذا. إن الحدث الفظيع لاحتضاره قد انحطّ على أيدي المحيطين به، - وكان يرى ذلك جيداً - إلى مستوى مجرد مكدّرٍ من المكدّرات، عدم لياقة تقريباً (كما يتصرفون تقريباً إزاء رجل تنبعث منه رائحةٌ خبيثة وهو يدخل صالوناً) وذلك باسم «التصحيح» نفسه الذي خدمه طوال حياته. كان يرى أن لاأحد يرأف به لأن لاأحد يريد أن يفهم وضعه. كان جيراسيم وحده يفهم هذا الوضع ويرأف به. ولذلك كان ايفان ايليتش يشعر بالراحة عندما يمسك جيراسيم قدميه، طوال ليالٍ كاملة أحياناً، ويأبى أن يذهب لينام، قائلاً:

- لاتهتم بي، ايفان ايليتش: مايزال لدي متسّع من الوقت للنوم.

أو حين يضيق وهو يخاطبه فجأةً بضمير المفرد:

- لو لم تكن مريضاً لاختلف الأمرُ؛ لكن لم لا أساعدك الآن؟

جيراسيم وحده لم يكن يكذب: كان كل شيء يُظهر أنه وحده يفهم مايجري ولايرى من الضروري إخفاء ذلك، لكنه كان يرأف بسيده الضعيف، المهزول. بل لقد قال له مرة بكل صراحة عندما ألحّ ايفان ايليتش لكي ينصرف:

- سنموت جميعاً. فلماذا لانكلّف أنفسنا بعض المشقة.

قال ذلك ليبيّن أن هذا العمل غير شاق لأنه يقوم به بالضبط إزاء محتضر، راجياً أن يفعل معه الناس كذلك إذا جاء دورهُ.

وأكثر ما كان يعذّب ايفان ايليتش عدا هذا الكذب أو نتيجةً لهذا الكذب هو أن لاأحد كان يرثي له كما كان يحب. وفي بعض الأحيان، وبعد النوبات الطويلة المؤلمة، كان يود، – وإن كان مخجلاً الاعتراف بذلك أمام نفسه– قبل كل شيء أن يرثي الناس له كما يُرثى للطفل المريض. كان يشتهي أن يداعبه الناسُ، أن يعانقوه، أن يبكوا قربه كما يُداعَب الأطفال ويُعزَّون. كان يعلم أنه عضوٌ في محكمة الاستئناف، وأن لحيته دبّ إليها الشيبُ، وأن مايريده من ثمَّ مستحيل. لكنه كان يشتهي ذلك كثيراً. وفي علاقته مع جيراسيم كان هناك شيءٌ يقارب ذلك. ولذلك كان حضور جيراسيم يهدّئه.

كان ايفان ايليتش يود لو يبكي، كان يود أن يلاطفه الناس وأن يبكوا على مصيره، لكن إذا بزميله «شيبيك» يدخل؛ وبدلاً من أن يبكي ايفان ايليتش وأن يرقّ، إذا به يتخذ هيئة جادة، صادقة، مستغرقة، ويعرض بجمودٍ رأيه في قرار محكمة النقض ويصرّ بعناد. إن هذا الكذب الذي كان سائداً من حوله وفيه سمّم، أكثر من أي شيء آخر، أيامَ ايفان ايليتش الأخيرة.

– ٨–

كان الوقتُ صباحاً. بديهيٌّ أن الوقت كان صباحاً، بما أن جيراسيم انصرف وأن بيير الخادم أطفأ الشموع وأزاح الستائر وشرع يرتّب الغرفة. وسواء أكان الوقت صباحاً أم مساء، أحداً أو جمعةً، فإن الأمر واحدٌ عند ايفان ايليتش: كان هناك دائماً ذلك الألم الخفيّ الذي لايُفارقه لحظة، وذلك الإحساس بأن حياته تهرب هرباً لاردّ له، لكنها لم تُستنفد تماماً بعد، كان هناك دائماً ذلك الموت الرهيب البغيض الذي يقترب، الواقع الوحيد، والكذب ذاته دائماً. . . فما أهمية الأيام والأسابيع وساعات النهار في هذه الحالة إذن؟

- ألا يرغب سيّدي في الشاي؟

فكّر ايفان ايليتش: «إنه يرى من اللازم أن يتناول الأسيادُ الشاي صباحاً، إنه يستسيغ النظام».

واكتفى بالردّ:

- لا.

- ألا يرغب سيدي في الجلوس على الأريكة؟

وفكّر:

- إنه بحاجة إلى ترتيب الغرفة، وأنا أضايقه. أنا أمثّل الفوضى وسوء النظافة.

وقال فقط:

- لا. اتركني.

بقي بيير أيضاً بعض الوقت. مدّ ايفان ايليتش يده، فبادر بيير إلى الدنوّ منه:

- فيم يرغب سيّدي؟

- ساعتي.

أخذ بيير الساعة التي كانت في متناول يد ايفان ايليتش ومدّها إليه.

- الساعة الثامنة والنصف. لم ينهض أحدٌ بعد؟

- لا، ياسيدي. فلاديمير ايفانوفتش (كان هذا هو الابن) ذهب إلى المعهد، وبراسكوفيا فيودوروفنا أمرت أن نوقظها إذا ماطلبتَها. هل ينبغي إيقاظها؟

- لا، لافائدة من ذلك.

وفكّر: «ليتني أتناول الشاي»...

- احملْ لي شيئاً من الشاي.

اتجه بيير الى الباب. خاف ايفان ايليتش أن يبقى وحده. «كيف أستبقيه؟ آه، نعم! الشراب!.

- بيير، دوائي!

«ولِمَ لا؟ ربما أراحني» تناول الملعقة وشرب. «لا، لن يخفّف الشراب عني. حماقات، كذبٌ ذلك كله!» قال ذلك في نفسه بعد أن أحس بالمذاق التافه والمزعج الذي كان يعرفه جيداً. «لا، لم أعد أومن به! لكن لم هذا الألم؟ ليته يتوقف ولو للحظة!» تنهّد. عاد بيير إليه.

- لا، اذهب وائتني بالشاي.

خرج بيير. تنهد ايفان ايليتش بعد أن بقي وحده، لامن الألم (مع أن الألم كان مبرّحاً) بقدر ماكان من القلق. «الشيء نفسه دائماً، الشيء نفسه دائماً! هذه الأيام والليالي التي لانهاية لها! ليت ذلك ينتهي بزمن أسرع؟ ماذا؟ الموت، الظلمات! . . . لا، لا! كل شيء ولا الموت!

عندما عاد بيير بالشاي على طبق، نظر إليه ايفان ايليتش طويلاً نظرةً شاردة غير مدرك من هو وماذا يريد. اضطرب بيير لهذه النظرة، وعندما رأى ايفان ايليتش اضطراب بيير ثاب إلى رشده. وقال:

- نعم، الشاي. . . ممتاز. ضعْه هنا، لكن ساعدني أولاً على الاغتسال ولبس قميصٍ نظيف.

أخذ ايفان ايليتش يغتسل. وببطء وبوقفات عديدة، غسل وجهه ويديه وأسنانه، وامتشط، ونظر إلى المرآة. خاف وهو يرى نفسه في المرآة عندما لاحظ كيف التصق شعره السابل بجبينه الشاحب.

عندما بدّل قميصه لم ينظر إلى جسده، لعلمه أن خوفه سيزداد لو شاهده.

وحين انتهى من زينته ارتدى مبذله وغطّى رأسه بغطاء، وجلس في مقعد لتناول الشاي. أحسّ بالانتعاش لحظة، ولكنه ماإن شرع بتناول الشاي حتى أحسّ بالمذاق نفسه وبالألم يعود إليه. بذل جهداً لينهي شايه واضطجع بعد ذلك ممدّداً ساقيه. اضطجع وصرف بيير.

الشيء نفسه دائماً: فتارة بريق أمل، وتارة أخرى عاصفة يأس، ودائماً هذا الألم وذلك القلق. الشيءُ نفسه دائماً. الوحدة تعذّبه؛ ودّلو ينادي أحداً؛ لكنه يعلم مسبقاً أنه إن جاء أحدٌ ساءت الحالُ أيضاً. «لو حقنوني على الأقل بالمورفين! حينئذ سأنسى نفسي! سأطلب من الدكتور أن يعثر لي على شيء ما. مستحيل، مستحيل أن استمر هكذا»!

مرت ساعةٌ، ساعتان. دقّ الجرسُ في البهو. لعله الدكتور؟ كان الدكتور، في الواقع، غضاً، ضخماً، مفعماً بالطاقة، فرحاً، وكأنه يقول: أنت مخطىء بقلقكَ. سوف نُصلح ذلك كله.» إن الدكتور يعلم أن هذا التعبير ليس لائقاً هنا، لكنه اتّخذه من مرّة ولا يستطيع أن ينزعه بعد ذلك، مثل سيد ارتدى ثيابه منذ الصباح ليقوم بزياراته.

فرك الدكتور يديه بانشراح ورضاً، وقال:

- مازلتُ متجمّداً. فالصقيع شديد. اسمحْ لي أن أتدفأ قليلاً.

وكأنما كان يكفي الانتظار إلى أن يتدفأ، وأن كلّ شيء سيُسوّى حالما يتدفأ. وسأل:

- حسناً! كيف الحال؟

ايفان ايليتش يعلم جيداً أن الدكتور يريد أن يقول: كيف حال أمورنا الصغيرة؟ لكنه تبيّن أنه لا يستطيع التعبير هكذا فقال:

- كيف قضيتَ الليل؟

نظر ايفان ايليتش إلى الدكتور نظرة استفهام:

«ألا تستحي حقاً من أن تكذب عليّ هكذا؟»

لكن الطبيب يأبى أن يفهم.

فيقول ايفان ايليتش:

- على أسوأ حال، كالعادة. فالألم لا يزول ولا يريد أن ينقطع. ليتنا نستطيع أن نفعل شيئاً ما.

هذه حالكم دائماً، أيها المرضى. حسناً! أظن أنني تدفأت الآن؛ براسكوفيا فيودوروفنا نفسها التي تتقن عملها لا تستطيع أن تفعل شيئاً إزاء حرارتي. حسناً! صباح الخير.

شدّ الدكتور على يد ايفان ايليتش. ثم تخلّى عن هيئته المرحة وأخذ يفحص المريض وهو رصين الطلعة؛ تحرّى نبضه، وأخذ حرارته وتسمع إلى قلبه وتنفّسه كما يفعل دائماً.

ويعلم ايفان ايليتش أن ذلك كله ماهو إلا كذب؛ لكن عندما ركع الدكتور وانحنى عليه وأسند أذنه هنا وهناك ونفّذ بمظهر جادّ عدداً من التمرينات، انساق ايفان ايليتش معه، كما كان ينساق أحياناً لخطب المحامين مع علمه الأكيد بكذبهم وبسبب كذبهم.

كان الدكتور راكعاً أمام الأريكة متابعاً معالجاته عندما وافى حفيفُ فستان على العتبة وسُمعت براسكوفيا فيودوروفنا تلوم بيير لأنه لم ينبئها بوصول الدكتور.

وتدخلُ وتُقبّلُ زوجها وتشرع على الفور في تأكيدها له أنها نهضت منذ زمن بعيد وأن سوء تفاهم قد حدث.

وينظر ايفان ايليتش إليها ويفحصها كلها ويلومها في داخلها على بياض سحنتها، وعلى وجنتيها المدوّرتين، وعلى نضارة ذراعيها وعنقها، ولمعان شعرها، وبريق عينيها الممتلئتين بالحياة. إنه يكرهها بكل قوى نفسه. ومسُّها يثير فيه انتفاضة الغيظ التي تجعله يتألم.

إن موقفها من ايفان ايليتش ومرضه لم يتغير. وكما أن الدكتور اصطنع إزاء مرضاه قاعدةً للسلوك لايمكنه التخلص منها، فكذلك تبنّت موقفاً مفادهُ أن تقول إن ايفان ايليتش لا يفعل بعض الأشياء التي كان ينبغي أن يفعلها، وأنه مسؤول هو نفسه عن وضعه، وذلك ماكانت تلومه عليه بلهجة وديّة. وكان يستحيل عليه أن يتخلص من تكوينه.

- إنه لايسمع مايقُال له، ولايتناول أدويته بانتظام. وهو يتخذ، علي الخصوص، في نومه وضعاً ضاراً بالتأكيد. إنه يرفع رجليه إلى الأعلى.

وروت أنه كان يجبر جيراسيم على أن يمسك برجليه مرفوعتين.

ابتسم الدكتور ابتسامةً مترفّعة ومشفقة، كانت تعني: «ما العمل! إن هؤلاء المرضى يخترعون حماقات! لكن ينبغي أن نعذرهم.».

عندما انتهى الطبيب من فحصه نظر إلى ساعته، وحينئذ أعلنت براسكوفيا فيودوروفنا لايفان ايليتش أنه مهما يقلْ فسوف تستدعي الطبيب الشهير الذي سيفحصه في هذا اليوم بالذات مع ميشيل دانيلوفتش (طبيب الأسرة).

– لاتعترضْ، أرجوك. إني أفعل ذلك من أجلي أنا.

قالت ذلك بسخرية وكأنها تلمّح أنها تفعل كل شيء من أجله وأنه، من ثم لايحق له أن يقاوم.

ظلّ صامتاً، متجّهم الوجه. أحسّ أن الكذب الذي يحيط به قد تشوّش بحيث غدا من الصعب أن يفهم شيئاً منه.

كل ماكانت تفعله إنما كانت تفعله من أجل مصلحته هو، لكنها كانت تقول وهي تشير إلى ذلك: إنها إنما كانت تفعله من أجلها هي باعتباره شيئاً غير عادي بحيث كان ينبغي له أن يفهم العكس.

والواقع أن الدكتور الشهير أقبل في الحادية عشرة والنصف، وبدأت من جديد الفحوصات وكذلك المشاورات، بحضوره وفي الغرفة المجاورة، بصدد الكلية والزائدة. كانت الأسئلة والأجوبة تُتبادَل بلهجة رسمية جداً حتى إن المسألة الحقيقية، مسألة، الحياة والموت التي كانت تطرح نفسها وحدها على ايفان ايليتش، أخلت مكانها مرة أخرى لمسألة الكلية والزائدة اللتين لم تعود تعملان، على مايبدو، كما ينبغي لهما، لكن ميشيل دانيلوفتش والطبيب الشهير سيردانهما مباشرة إلى جادة الصواب.

ودّعهم الطبيب الشهير بوجهٍ رصين وإن لم يكن مُثبِّطاً. ورداً على سؤال خجل طرحه عليه ايفان ايليتش وعيناه تبرقان خشيةً ورجاءً:

– هل هناك أملٌ في الشفاء؟

أجاب:

– إنه لايمكن أن نضمن شيئاً، لكن هناك حظاً في الشفاء.

إن النظرة المحمّلة بالأمل التي أرسلها ايفان ايليتش في إثر الطبيب كانت مثيرة للشفقة إلى حدّ أن براسكوفيا فيودوروفنا أخذت تبكي وهي ترافق الطبيب الشهير لتسلّمه أجرته.

لم تكن الثقة التي أوحت بها الكلمات المشجّعة للطبيب الشهير طويلة الأمد. كان هناك دائماً الغرفة نفسها، واللوحات نفسها، والستائر نفسها، والأوراق نفسها على الجدران وهذا الجسد نفسه متوجعاً، متألماً. لقد أخذ ايفان ايليتش يتأوه.. فأُعطي حقنة مورفين أسلمته إلى حالة من النعاس.

عندما صحا، كان الظلام قد أخذ يخيم، فجيءَ بطعامه. حمل نفسه حملاً على تناول شيء من الحساء: مرّت الساعات متشاكلةً. وهبط الليلُ.

بعد الطعام، في الساعة السابعة، دخلت الغرفة براسكوفيا فيودوروفنا، بفستان السهرة، وصدرُها القوي محزومٌ، وآثار البودرة على وجهها. أخطرته من الصباح أنهم سيذهبون إلى المسرح: لقد وصلت سمساره برنار، وكانت لهم مقصورة، مستأجرة بناء على إلحاح ايفان ايليتش. لكنه نسي ذلك، وأهانته هذه الزينةُ الآن. كتم الإهانة مع ذلك عندما تذكر أنه ألحّ هو نفسه للحصول على هذه المقصورة ومشاهدة العرض الذي كان يحمل إلى الأولاد المسرّة التعليمية والجمالية.

دخلت براسكوفيا فيودوروفنا وهي جدّ راضية عن نفسها، لكنها دخلت وفي وجهها أيضاً تعبير مذنبٌ قليلاً. جلست واستعلمت عن صحته؛ أدرك أن ذلك لكي تقول شيئاً مالا لتعلم كيف حاله، لأنها كانت تعلم أنه لا يمكن أن يطرأ عليها جديدٌ. وبعد ذلك أخذت تتحدّث عمّا يشغل بالها: انها ماكانت لتذهب إلى المسرح لو لا أن المقصورة مستأجرة وأن من المستحيل ترك ابنتها تذهب وحدها مع مَنْ يطلب يدها، بيتر يشتييف. وكانت ستسرّ كثيراً لو ظلت بجنبه! على شرط أن يتبع في غيابها تعليمات الطبيب!.

– بالمناسبة! فيودور ديميتريفتش (بيتريشتييف) يودّ لو يراك، وكذلك «ليزا»... ممكن؟

- ليدخلا .

دخلت ليزا لابسة بأناقة وقد تعرّى جسدُها الفتيّ هذا الجسد الذي طالما آلم ايفان ايليتش والذي كانت تعرضه للأنظار. كانت طويلة، معافاة، عاشقة كما يبدو، وغاضبة على المرض والأوجاع والموت التي تقف عائقاً في وجه سعادتها.

دخل فيودور ديميتريفتش أيضاً؛ كان في الثياب الرسمية وشعره مصفّف على نمط «كابول»، وكان عنقه الطويل الذي برزت عروقُه غارقاً في ياقة عالية بيضاء، وكان صدره مغطّى بواقية عريضة منشّاة؛ وكان البنطال الضيّق الأسود يشد فخذيه المتينتين شداً؛ وكان يمسك بيديه قفازاً أبيض وقبعة رسمية.

انسلّ خلفهما طالبُ المعهد ببذلة جديدة، المسكين، وهو يلبس قفازاً حديث العهد، وحول عينيه دائرةٌ سوداء كان ايفان ايليتش يعلم دلالتها.

كان يحسّ دائماً بشفقة عظيمة على ابنه الذي كانت ترعبه النظرةُ الخائفةُ المشفقة. وفيما عدا جيراسيم، كان هذا الابن - على مابدا لايفان ايليتش - هو الذي يفهمه ويشفق عليه.

جلس الجميعُ؛ استعلموا مرة أخرى عن صحته. ثم صمتوا. سألت ليزا أمها أين المنظار، وتلا ذلك نقاشٌ بين الأم وابنتها اللتين تبادلتا تهمة إضاعته. كان ذلك غير مستحب.

سأله فيودور ديميريفتش إن كان قد رأى ساره برنار. لم يفهم ايفان ايليتش السؤال في البدء، ثم قال:

- لا، وأنتَ هل رأيتها؟

- نعم، في «ادريين ليكوفرير»[1].

---

(١) - مسرحية ألفها «سكريب» ١٨٤٩، مثلتها بنجاح ساره برنار (١٨٤٤ - ١٩٢٣) أثناء جولاتها في روسيا.

قالت براسكوفيا فيودوروفنا إنها كانت رائعة بخاصة في هذا الدور أو ذاك. حينئذ أخذوا يتحدّثون عن أناقة تمثيلها وواقعيته؛ وكان الحديث عادياً كالحديث الذي يدور في مثل هذه الحالات.

في وسط الحديث نظر فيودور ديميتريفتش إلى ايفان ايليتش وصمت. نظر إليه الآخرون أيضاً وصمتوا مثله. كان ايفان ايليتش يحدّق فيهم، وعيناه تلتمعان، وقد بدا مغتاظاً. كان ينبغي إصلاح الأشياء، لكن ذلك كان مستحيلاً. كان ينبغي أن يكفوا عن الصمت على هذا النحو أو ذاك. فلم يُقدمْ أحدٌ على ذلك؛ كان الجميع يخافون أن يبدّدوا فجأة الكذب الصحيح وأن يُظهروا هكذا الواقع بوضوح. قرّرت ذلك ليزا قبل غيرها. أقلعت عن الصمت. أرادت أن تُخفي ماأحسّ به الجميع لكنها فضحتْ نفسها وقالت وهي تنظر إلى الساعة، هدية أبيها، وتُبادل الشابَ ابتسامةً خفيّة يفهمانها وحدهما.

- مع ذلك، ليتنا نذهب.

ثم نهضت وفستانها يحفّ حفيفاً.

نهض الجميع وودّعوا ايفان ايليتش وخرجوا.

عندما غادروا الغرفة شعر ايفان ايليتش بالانفراج: اختفى الكذبُ، خرج معهم. لكن الألم باقٍ. الأوجاع نفسها دائماً، والرعب نفسه. ومامن عزاء.

تتابعت الدقائق والساعات، دون تغيير، بلا نهاية، وبدت النهاية المحتومة التي تشتدّ شراستُها.

ردّ على بيير:

- نعم، ابعثْ لي جيراسيم.

عادت براسكوفيا فيودوروفنا في ساعة متأخرة من الليل. دخلت على رؤوس أصابعها، لكنه سمعها. فتح عينيه ومالبث أن أغمضها. أرادت أن تصرف جيراسيم وتأخذ مكانه، ففتح عينيه ثانية وقال:

- لا، انصرفي.
- أتتألم كثيراً؟
- ماأهمية ذلك!
- خذْ شيئاً من الأفيون.

وافق وجرع الجرعة. خرجت. ظلّ حتى الساعة الثالثة غارقاً في خدرٍ مؤلم. بدا له أنه يُدْفَع دفعاً موجعاً إلى كيسٍ أسود، ضيّق وعميق؛ إنه يُدفَع لكنه لايفلح في المرور بالكيس. ويسبّب له هذا الشيءُ المرعب ألماً حاداً. ويخاف، ويود لو يسقط في الكيس، ويقاوم ويبذل وسعه ليمرّ عبر الفتحة الضيّقة. ثم ينزلق فجأة ويسقط، ويثوب إلى رشده.

كان جيراسيم مايزال هنا، عند قائمة السرير، غافياً، هادئاً، صابراً. وكان هو ممدّداً على ظهره، مهزول القدمين، بجوربيهما، وهما مستندتان إلى كتفي جيراسيم. وماتزال الشمعة في مكانها تغطّيها كمّةٌ. وذلك الألم الذي يُحتمل لايريم. همسْ:

- انصرفْ، جيراسيم.
- لابأس علي، سأبقى قليلاً.
- لا، انصرفْ.

رفع قدميه عن كتفي جيراسيم، واضطجع على جنبه، ويده تحت خدّه، ورقّ لحاله. انتظر فقط أن يتركه جيراسيم؛ حينئذ ترك نفسه على سجيتها وأخذ يبكي كالطفل. بكى على حالته الميؤوس منها، على وحدته المرعبة، على قسوة الناس، على قسوة الله الذي تخلّى عنه. «لم فعلتَ ذلك كله؟ لم أتيتَ بي إلى هنا؟ لماذا، لماذا تعذّبني هكذا؟».

لم يكن ينتظر جواباً، وبكى لأنه لاجواب عن أسئلته ولا يمكن أن يكون هناك جواب. اشتدّ الألم، لكنه لم يتحرك ولم يدعُ أحداً. كان يقول في نفسه: «حسناً! اضربْ! اضربْ بقوة أكبر! اضربني! لكن لماذا؟ وماذا فعلتُ لك؟ لماذا؟

ثم هدأ وكفّ عن البكاء، بل كفّ عن التنفس وغدا كلُّه آذاناً، وكأنما كان يصيخ السمع لصوتٍ صامتٍ، لصوت نفسه، لتقلّب الأفكار التي تتصاعد فيه.

«إلامَ تحتاج؟» هذه أول فكرة واضحة يمكن أن يُعبَّر عنها بالكلمات، سمعها. «إلام تحتاج؟ إلام تحتاج؟» «إلام؟» ردّد ذلك وأجاب: «ألاّ أتألم. أن أحيا!».

وغدا أيضاً أشدّ انتباهاً، وقد توتّر كيانه إلى حدّ أن الألم لم يفلح في صرف انتباهه.

سأل صوتُ النفْس: «أن تحيا؟ كيف تحيا؟»

«نعم، أن أحيا، كما كنت أحيا سابقاً، على نحو سارٍّ، سهلٍ.».

سأل الصوتُ: «كيف كنت تحيا على نحو سارٍ وسهل؟».

أخذ يستعرض بخياله أفضل لحظات حياته السارة. لكن الشيء الغريب أن تلك اللحظات اتخذت في نظره مظهراً مختلفاً كل الاختلاف عمّا كانت عليه قديماً. جميع اللحظات ماعدا ذكريات طفولته الأولى. كان في طفولته شيءٌ جميلٌ حقاً. شيءٌ جديرٌ بأن يعينه على الحياة الآن لو استطاع بعثه. لكن الذي عاش ذلك الشيء لم يعد موجوداً: ربما كان المعنيُّ شخصاً آخر.

فما ان بدأت سلسلةُ الأحداث التي آلتْ في النهاية إلى ايفان ايليتش الحالي، حتى تبدّدت الآن أمام عينه جميعُ الأفراح التي عاشها والتي بدت له آنذاك أفراحاً، وتحولت إلى شيء تافهٍ بل وحقير.

وكلما كانت ذكريات ايفان ايليتش تبتعد عن طفولته، وتقترب من الحاضر بدت له الأفراحُ التي عاشها مشبوهة وفارغة. بدأ بمدرسة الحقوق:

هناك عرف أيضاً لحظات طيّبة حقاً؛ هناك عرف الفرح والصداقة والأمل. لكن هذه اللحظات في الصفوف العليا أخذت تندر. وفيما بعد، في زمن خدمته مع الحاكم، كانت له بعض الدقائق الجميلة: أحب امرأة. ثم اختلط كل شيء، وغدت اللحظات الجميلة مرةً أخرى أندر، وأندر...

زواجه... مصادفة؛ وخيبة الآمال، ونَفَسُ امرأته النتن، والشهوانية، والنفاق... ثم خدمته، الكئيبة جداً، وهموم المال. دام ذلك سنةً، سنتين، عشر سنوات. الشيء نفسه دائماً. كانت الحياة، كلما مرّت السنون، تزداد فراغاً وكآبة. «كنتُ كأني أهبط سفحاً وأنا أظن أنني أصعد. كنتُ أصعد، بالفعل، في نظر الرأي العام، لكني في الحقيقة، كنت أنزلق إلى الأسفل، وكانت الحياة تهرب مني... وهاأنذا! انتهى كلُّ شيء. فمُتْ الآن!

«لكن ماذا يعني ذلك، ياترى؟ لماذا؟ مستحيل! لايمكن أن تكون الحياة بمثل هذا الغباء والحقارة. وإذا كانت كذلك فلم كان لابدّ من الموت مع الألم؟ هناك شيء على غيرمايُرام. لعلي لم أعش كما ينبغي لي أن أعيش؟ ذلك غير ممكن، بما أني فعلتُ دائماً ماينبغي فعله.».

ولم يلبث أن طرد الحلّ الوحيد، حلّ لغز الحياة والموت باعتباره غير معقول: «ماذا تريد الآن؟ أن تحيا؟ وكيف تحيا؟ أن تحيا كما كنت تحيا إذا كنتَ قاضياً، عندما كان الحاجب يعلن: «محكمة»!» وردّد في نفسه: المحكمة! المحكمة! هاهو ذا الحكم. مع أني لستُ مذنباً! لماذا؟» صرخ بذلك كله وهو محنق.

كفّ عن البكاء، وأخذ يفكر، وقد أدار وجهه إلى الجدار، بالشيء نفسه: لماذا؟ لماذا هذا الشيء الرهيب؟

لكنه لايجد جواباً مهما فعل. وعندما كانت تنبعث فيه هذه الفكرة: - وماأكثر ماحدث له ذلك- أن كل ذلك ناجمٌ من أنه لم يعش، كان يتذكّر على الفور استقامة حياته ويطرد بعيداً هذه الفكرة الغريبة.

مرّ أسبوعان أيضاً. لم يكن ايفان ايليتش يفارق الأريكة التي ظل مضطجعاً عليها، إذ لم يشأ أن يبقى في سريره. كان يتألم وهو ممدد تقريباً ووجهه إلى الجدار، وحيداً، يتألم آلامه المستعصية على الحل، كان يغوص، وحيداً، في أفكاره المستعصية على الحل.

«ماهذا، ياترى؟ أهو الموت حقاً؟»

فيجيبه الصوتُ الداخلي: «نعم، هذا هو الموت»- «لكن لمَ هذه الآلام؟» فيجيبه الصوت: «هكذا، من أجل لاشيء.»

منذ بداية مرضه، منذ اللحظة التي ذهب فيها ايفان ايليتش إلى الطبيب، انشقّت حياتُه الداخلية، منتقلة تباعاً من اليأس وانتظار الموت المرعب وغير المفهوم إلى الرجاء واستعمال ذكائه كله لعمل أعضائه. فتارةً لم يكن يفكّر إلا في كليته وأمعائه التي كانت ترفض موقتاً أن تقوم بوظيفتها؛ وتارة أخرى، لم يكن أمام عينيه سوى هذا الموت الشرس، الذي لايُفهم، والذي لايمكن أن يخلّصه منه شيء.

هاتان الحالتان الفكريتان تناوبتا فيه منذ بداية مرضه، لكن كلما كان مرضُه يتفاقم كانت آماله تبدو له خياليّة ووهميّة، بينما كان الشعور بالموت القريب يفرض نفسه عليه بواقعية أكبر.

كان يكفيه أن يتذكر ماكان عليه قبل ثلاثة أشهر، والانتظام الذي تمّ به الانحدار، لكي يختفي على الفور كلُّ إمكانٍ للأمل...

في هذه الآونة الأخيرة من وحدته، هذه الوحدة وسط مدينة كبيرة، ووسط أصدقائه وأسرته، وحدته التي لايمكن أن تكون أتمَّ في أعماق البحر أو الأرض، في الآونة الأخيرة من هذه الوحدة الرهيبة، لم يكن ايفان ايليتش يعيش، ووجهه مستديرٌ إلى مسند أريكته، إلا في الماضي. كان يبدأ

دائماً بأقرب الأحداث إليه ليعود بعدها بخياله إلى طفولته، ويقف عندها. وإذا بالخوخ المطبوخ الذي قُدّم له في هذا اليوم، يُذكّر بالخوخ المجفّف المجعّد في طفولته، وطعمه الخاص، واللعاب الذي يملأ فمه عندما يصل إلى النواة؛ وكانت هذه الذكرى تجرّ غيرها من الفترة نفسها: مربيته، أخاه، ولُعبهما. . . «لا، لاينبغي أن يفكر في هذ الأشياء جميعاً. فذلك مؤلمٌ ألماً يتجاوز الحدّ». كان يقول ذلك في نفسه ويعود إلى الحاضر. الأزرار على مسند الأريكة وطيّات الجلد الدقيقة. «الجلد غالٍ وقليل المتانة. تخاصمْنا بهذا الصدد. لكن كان الموضوع جلداً آخر وخصاماً آخر، عندما مزّقنا محفظةَ والدنا وعوقبنا، وحملت إلينا ماما الحلوى. . .» ويعود فينغمس في ذكريات طفولته التي كانت تؤلمه، فيبذل وسعه ليطردها وليفكر في شيء آخر.

وفي موازاة سلسلة الذكريات هذه كانت تُنشَر سلسلةٌ أخرى تتصل بتطوّر مرضه وتفاقمه. وفي هذه الحالة أيضاً، كان كلما تراجع في مجرى الزمن رأى نفسه أكثر حياةً. كان أفضل وأكثر حياة. كان الخيرُ والحياة يختلطان وفكّر: «فكما أن آلامي كانت تشتدّ كانت حياتي تسوء أيضاً. وليس هناك سوى نقطة واحدة مضيئة، هناك في بداية وجودي، ثم يغدو كلُّ شيء أسود، يزداد سواداً أبداً، ويزداد سرعة أبداً. بعكس مربع مسافات البعد عن الموت.» كذلك كان يقول ايفان ايليتش في نفسه. وانطبعت في نفسه صورة حجرٍ يسقط بسرعة متزايدة. إن الحياة، إن سلسلةً من الأوجاع المتعاظمة تندفع بسرعة متزايدة نحو غايتها الأخيرة، الوجع الأرهب.

«إني أسقط. . .» انتفضَ وتحرك وحاول أن يقاوم لكنه كان يعلم أن المقاومة غير ممكنة، وحدّق في مسند الأريكة بعينيه المتعبتين اللتين لم تكونا تستطيعان ألاّ تنظرا أمامهما، وانتظر، انتظر ذلك الشيءَ الفظيع السقوط، الصدمة، الدمار.

قال في نفسه: المقاومة غير ممكنة، لكن ليتني أستطيع على الأقل فهم لماذا كل ذلك؟ فذلك أيضاً غير ممكن. يمكن تفسير ذلك لو قيل إنني لم أعش كما كان ينبغي لي أن أعيش. أما ذلك فهو غير مقبول البتّة.» وإنما فكّر هكذا لأنه تذكّر صحة حياته وانتظامها واستقامتها. وردّد في نفسه متبسماً بشفتيه فقط وكأن هنا من ينظر إلى هذه الابتسامة ويؤخَذ بها: «ذلك غير مقبول بتاتاً. لاتفسير لذلك! الأوجاع، الموت. . . لماذا؟».

- ١١ -

مرّت ثلاثة أسابيع على هذا المنوال، وفي أثنائها جرى ذلك الحدث الذي طالما ابتغاه ايفان ايليتش وزوجته: ذلك أن بيترتشتييف. خطب الفتاة رسمياً. كان ذلك مساءً. في اليوم التالي، دخلت براسكوفيا فيودوروفنا غرفة زوجها، وهي تتساءل كيف تبلغه أمر الخطبة. لكن في هذه الليلة تغيرّت، ساءت حالةُ ايفان ايليتش، فوجدته براسكوفيا فيودوروفنا على أريكته، في وضع جديد: كان مستلقياً على ظهره، يتأوه ويحدّق النظر أمامه.

أخذت تحدثّه عن الأدوية. صعّد نظره إليها، فلم تكمّل الجملة التي بدأتها لفرط ماعبّرت هذه النظرة عن الكراهية، ولاسيما نحوها.

- باسم المسيح، دعيني أمتْ بسلام.

أرادت أن تنصرف، لكن ابنتها دخلت في هذه اللحظة ودنت من أبيها لتسلّم عليه. نظر إلى البنت نظرته إلى الأم، ورداً على أسئلتها عن صحته أجاب بجفاف أنه سيخلصهما من حضوره عما قريب. فصمتتا كلتاهما وجلستا بضع لحظاتٍ وخرجتا.

قالت ليزا لأمها:

- فيمَ أذنبنا؟ كأن الغلطة غلطتنا! إني أشفق على بابا. لكن لماذا يجعلنا نتألم؟

جاء الدكتور في ساعته المعتادة، فلم يجبه ايفان ايليتش إلا بـ «نعم» أو «لا»، دون أن يرفع عنه نظرته المثقلة بالكراهية؛ وأخيراً قال له:

- أنت تعلم جيداً أنك لاتستطيع أن تعينني؛ دعني وشأني.

قال الدكتور:

- يمكننا تخفيف الآلام.

- وهذا أيضاً لايمكنك أن تفعله، فدعْني إذن!

خرج الدكتور إلى الصالون وأعلن لبراسكوفيا فيودوروفنا أن حالته ساءت وأنه لم يبق سوى دواءٍ واحد هو الأفيون، لتخفيف الآلام التي لابدّ أن تكون رهيبة.

قال الدكتور إن أوجاع ايفان ايليتش الجسدية رهيبة، وماقاله حقٌّ؛ لكن أوجاعه الروحية كانت أرهب من آلامه الجسدية، وهي التي كانت تعذّبه على وجه الخصوص.

إن أوجاعه الروحية جاءت هذه الليلة وهو ينظر إلى رأس جيراسيم ذي الوجنتين البارزتين حين أخذ ينعس، وخطر له فجأة هذا الخاطر: «وإذا لم تكن حياتي حقاً، حياتي الواعية، كما ينبغي لها أن تكون؟».

خطر بباله أن ماكان يعدّه حتى الآن استحالة مطلقة- أنه قد عاش على نحوٍ مختلف عما كان ينبغي له أن يعيش- يمكنه أن يكون هو الحقيقة. وأن الجهود التي بذلها في مقاومة ماكان الأشخاص المتقلدون أرفع المناصب يعدّونه صالحاً، وهي جهود لم تكد تُلحظ وكان يكبتها من فوره، وربما كانت حقيقية وكلّ ماسواها كذب... وربما لم تكن خدمته وحياته المنظّمة وأسرته ومصالحه الدنيوية سوى كذب. لقد حاول أن يدافع عن جميع هذه الأشياء أمام نفسه. لكنه أحسّ فجأة بتهافت ماأراد الدفاع عنه. فليس في ذلك مايُدافَع عنه.

قال في نفسه:

«إذا كان الأمرُ كذلك، وإذا كنتُ أُفارقُ الحياة بشعور مَنْ أضاع وخرّب كل مامُنحه، وإذا كان لاسبيل إلى إصلاح مافات، فماذا حينئذ؟»

استلقى على ظهره وأخذ يتفحّص حياته من وجهة نظر جديدة كل الجدّة. فعندما رأى في الصباح خادمه، ثم امرأته، ثم ابنته، ثم الطبيب، كانت كلُّ حركة من حركاتهم تؤكد له الحقيقة الفظيعة التي انكشفت له في هذه الليلة. كان يرى نفسه فيهم، وكانت حياته ماكانت عليه حياتهم؛ ورأى بوضوح أن الأمر لم يكن كذلك وأنه كان كذبة هائلة، مرعبة، تخفي الحياة والموت. كان هذا الشعور يزيد ويضاعف آلامه الجسدية. كان يتأوه ويضطرب ويجهد في أن يقلع ثيابه التي كانت تضغط عليه وتخنقه، كما بدا له. ولذلك كره جميع أقربائه.

أُعطِيَ جرعةً قوية من الأفيون؛ أغفى. لكن ذلك عاد من جديد ساعة الغداء: طرد الجميع خارج غرفته وتقلّب على أريكته ذات اليمين وذات الشمال.

دنت منه براسكوفيا فيودوروفنا وقالت:

- جان، ياصاحبي، افعل ذلك من أجلي (من أجلي؟). فذلك لايؤذي، بل إن ذلك قد يعزّي. ثم إن الناس المعافين أنفسهم...

شخص بعينيه:

- ماذا- أن أعترف؟ لماذا؟ لايجب... بيد أن...

أخذت تبكي.

- نعم، ياصاحبي. سأدعو كاهننا. فهو عظيم اللطف.

- ممتاز، جيد.

عندما جاء الكاهن وعرّفه، عاد إليه هدوءُه، بدا له أنه تخفف من شكوكه، وتبعاً لذلك من آلامه. بل لقد لاح له الأمل دقيقة. فأخذ يفكر من جديد في الزائدة ووسائل شفائها. تناول القربان والدموع في عينيه.

عندما أُضجع بعد التناول، أحسّ بالتحسن للحظة، وبدأ الأملُ يراوده. فكّر في العملية التي يقترحونها عليه. قال في نفسه: «أن أعيش! أريد أن أعيش!».

جاءت امرأته تهنّئه. ولفظت الكلمات المعتادة في هذه الحالة وأضافت:

- أنت تشعر بالتحسّن، أليس كذلك؟

قال: «نعم»، دون أن ينظر إليها.

كانت ثيابه وشخصه كله وتعبير وجهه وجرس صوته كان كل شيء يقول له: «ليس الأمر كذلك؛ كل ماكان يجعلك تحيا، كل ماتحيا منه، ليس سوى كذب يخفي عنك الحياة والموت.» ومـاإن قيل ذلك حتى تجدّدت كراهيته، ومع الكراهية الآلام الجسدية، ومع الآلام، الشعورُ بالموت الوشيك، المحتوم. عادت الآلام: كان ذلك ينخره، يثقبه من جهة الى جهة، ويقطع أنفاسه.

كان تعبير وجهه عندما قال «نعم» فظيعاً. إذ قالها وهو يحدّق في عينيها بحيوية غير عادية بالنسبة إلى حالة ضعفه، انقلب ودفن وجهه في الوسادة، وصاح:

- اذهبي، اذهبي، دعيني!

- ١٢ -

بدءاً من هذه اللحظة بدأت هذه الصرخات التي دامت ثلاثة أيام بلا انقطاع، وكانت فظيعة بحيث لايمكن الاستماع إليها عبر عدة أبواب مغلقة دون أن تهزّ المستمع هزاً. وفي الدقيقة نفسها التي أجاب فيها امرأته أدرك أنه هالك وأن العودة مستحيلة وأن النهاية آتيةٌ هذه المرة، وأن شكوكه لم تشأ أن تسكن، وظلت دون حل.

صرخ بنبرات شتّى: «آه! آه! آه! بدأ صياحه: «لا أريد!» وانتهى بهذه النبرة: «آ... آ...».

طوال هذه الأيام الثلاثة التي لم يكن الزمن موجوداً أثناءها، كان يتخبّط في ذلك الكيس الأسود الذي كانت تُدخله فيه قوةٌ خفيّةٌ لاتُقهر. كان يتخبط كما يتخبط بين يدي الجلاد محكومٌ بالإعدام، وهو يعلم أنه لايمكن

أن ينجو. وكلما كانت الدقائق تمر كان يحس ّأنه بالرغم من جميع جهوده يزيد قرباً مما ملأه رعباً. كان يحس ّأن عذاباته تنجم عن دفعه في هذا الثقب الأسود، وأكثر من ذلك عن أنه لايفلح في دخوله. وماكان يمنعه من الدخول هو شعوره بأن حياته كانت صالحة. كان هذا التسويغ لحياته هو الذي يثْنيه ويمنعه من المواجهة ويعذبه أكثر من غيره.

وفجأة ضربته بعنفٍ قوةٌ مجهولة في صدره، في جنبه، وقطعت تنفسّه؛ سقط منقلباً في الثقبِ وهناك، في أعمق القاع، التمعَ شيءٌ. فأحس بما أحس ّبه قديماً في القطار عندما نتصور أننا نتقدم بينما نحن نتأخر ونتعرف فجأة الاتجاه الصحيح.

قال في نفسه: «نعم، لم يكن «ذلك» على الإطلاق. لكن لابأس، فإن «ذلك» يمكن أن يُفعَل أيضاً».

ثم تساءل وما «ذلك»؟

وسكن فجأةً.

كان ذلك في نهاية اليوم الثالث، قبل موته بساعتين. في هذه اللحظة بالذات انسل ّطالبُ المعهد برفقٍ إلى الغرفة ودنا من السرير. لم يكف المحتضر عن إطلاق الصرخات اليائسة وهو يحرك ذراعيه. صادفت يده رأس الولد؛ أمسك بها طالبُ المعهد وأطبق شفتيه عليها وشرع يبكي.

في هذه اللحظة بالضبط سقط ايفان ايليتش، شاهدَ النور واكتشف أن حياته لم تكن كما كان ينبغي أن تكون، لكن اصلاح مافات مايزال ممكناً. تساءل:

«ماذلك؟». سكنت نفسه وأصاخ السمع. حينئذ أحس ّأن هناك من يلثم له يده. فتح عينيه ونظر إلى ابنه. فأشفق عليه. اقتربت امرأته منه فنظر إليها أيضاً. تفرّست فيه بيأس فاغرة الفم، وقد تبلّل خداها وأنفها بالدموع.

فكّر: «نعم، إني أعذّبهم. هم يشفقون علي؛ لكن من الأفضل لهم أن أموت». أراد أن يقول لهم ذلك، لكنه لم يَقْوَ عليه. وفكّر: «ثمّ، لماذا الكلام. يجب أن تفعل ذلك». أشار بنظرته إلى ابنه وامرأته وقال:

ائتيني به . . . أنا أشفق . . . عليك أيضاً .
أراد أن يضيف : «سامحيني!» لكنه قال :
– دعيه يمرّ .
وعجز عن استدراك ذلك فأشار بيده لعلمه أنه سيفُهم ممن سيفهمه .
وبغتةً، أحسّ بوضوح أن ماكان يعذّبه ويضغط عليه قد تبدّد، وأنه ينساب خارجاً عنه دفعة واحدة من جميع الجهات . إنه يشفق عليهم . وينبغي له ألا يجعلهم يتألمون بعد الآن . ينبغي أن يخلّصهم ويخلص نفسه من عذاباتهم . فكّر : «ماأحسن ذلك وماأبسطه!» . «لكن ماذا أفعل به «هو»؟ حسناً! أين أنت؟ أين أنت، يا ألمي؟» .
وأرهف انتباهه :
«آه! هاهو ذا! حسناً لِيبْقَ هنا! والموت؟ أين هو؟» .
فتش عن رعبه المعتاد فلم يعثر عليه . «أين هو؟ أي موت؟» . لم يعد يخاف لأن الموت قد مات أيضاً .
بدلاً من الموت رأى النور .
وقال فجأة بصوت عالٍ : «هاهوذا إذن . ياللفرح!» .
حدث ذلك كله له في لحظة واحدة، ولم تتغير بعد ذلك دلالةُ هذه اللحظة . لكن احتضاره بالنسبة إلى الذين يُحدقون به، دام ساعتين . انبعثت من صدره حشرجات، وارتعش جسمه العاري من اللحم . ثم تباعدت شيئاً فشيئاً الانتفاضات والحشرجات .
قال أحدهم :
انتهى الأمر .
سمع هاتين الكلمتين وردّدهما في نفسه قائلاً :
«انتهى الموت! مات الموت» .
تنشّق الهواء بعمق ولم يُنهِ تنشّقه . تصلّب ومات .

مايحتـــاج إليه الإنســـان مـــن الأرض

- ١ -

كان هناك أختان، الكبرى متزوجة من تاجر في المدينة، والصغرى من فلاح في الريف. وذات يوم جاءت ساكنةُ المدينة تزور ساكنةَ الريف، فأثنت على الحياة التي تحياها في المدينة؛ إنها تعيش على هواها، وهي أنيقةٌ في ملبسها، وأولادها يرتدون ثياباً حسنة، ولاتأكل ولاتشرب إلا الأشياء الطيّبة؛ وعندها، النزهاتُ والعروضُ المسرحية، إذا شاءت أن تسرّي عن نفسها. ردّت الصغرى التي لامس كلامُ أختها النقطة الحسّاسة فيها بأن حطّت من حياة التاجرة وعظّمت فوق الحد حياةَ الفلاّحة، حياتها.

قالت لها:

- لاأُبادل مصيري بمصيرك. إن حياتنا باهتة، في الحقيقة، لكنها لم تُسمَّم بالخوف. حياتكم أكثر إمتاعاً؛ لكن إذا وقع لكم أن ربحتم كثيراً من المال فقد يقع لكم أن تخسروا كلَّ شيء. وكما يقول المثل: الخسارة أختُ الربح الكبرى. فإذا كنتم اليوم أغنياء تعرضتم غداً للاستجداء. أما حياتنا، نحن الفلاحين، فهي مضمونة أكثر. إن بطن الفلاح رقيق لكنه طويل؛ وإذا كنا لانثري أبداً ظلّ عندنا مانقتات به.

أجابت الكبرى:

- نعم، لكن حياتكم هي أن تعيشوا مع الخنازير والعجول. ومهما يُنهك زوجُك نفسه بالعمل فلن تعرفوا أناقة السلوك ولن تبلغوا الرفاهية؛ وُلدتُم بين الأقذار وستعيشون وتموتون فيها، كما سيعيش أبناؤكم ويموتون.

أجابت الصغرى:

- ذلك أن مهنة الفلاحة تحتاج إلى ذلك. لكن حياتنا من أجل ذلك

أكثر استقراراً عندما نملك الأرض. وليس علينا أن نذلّ أو نرتجف أمام أيّ كان. وكم من الإغراءات تترصّدكم في المدينة! إذ تكون الأعمال حسنةً اليوم لكن الشيطان قد يغوي زوجك غداً بالقمار أو الشراب فإذا أنتم مفلسون. وهذا مايقع غالباً.

كان «باكوم» زوج الصغرى، جالساً على المدفأة، يصيخ السمع إلى ثرثرة المرأتين. فعبّر عن رأيه قائلاً:

– لاشيء أصدق مما قالته. فلكوننا مشغولين، منذ طفولتنا بنَقْب أمنا الأرض، لم يبق لدينا متّسع من الوقت لسفاسف الأمور. إن همنا الوحيد هو أننا لانملك مايكفي من الأرض. آه! لو كان عندي مايكفي منها لما أخافني الشيطان بذاته!.

تناولت المرأتان الشاي، وعادتا إلى الكلام عن وسائل الزينة وأدخلتا الكؤوس ومضتا إلى النوم.

وسمع الشيطان كلّ شيء من خلف المدفأة حيث كان كامناً. وسَعِد أن امرأة الفلاح دفعت زوجها إلى تحدّي الشيطان، إذ أعلن عالياً أنه لو ملك مايشاء من الأرض لما أخافه الشيطان.

فكّر الشيطان: «النزال بيننا نحن الاثنين. سأعطيك ماتشاء من الأرض، وبهذه الأرض سأتغلب عليك.

– ٢ –

كان لـ «باكوم» الفلاح جارةٌ، سيّدة قصر تملك مئة وعشرين هكتاراً من الأرض. وقد عاشت دائماً في وفاق تام مع الفلاحين، دون أن تُسيء إلى أحد، عندما اختارت عسكرياً قديماً متقاعداً وكيلاً لها صبّ على الفلاحين فنون الغرامات.

عبثاً اتّخذ «باكوم» جميع الاحتياطات، فلم يمكنه أن يمنع حصانه من

ارتياد شيلم الأرض المجاورة، أو بقرته من دخول الحديقة، أو عجوله من الرعي في المرج: فتنهال حينئذ عليه الغرامات ُانهيالاً. وكان باكوم يؤديها وهو يجدّف، وكان ذووه يعانون من سوء مزاجه. وطوال هذا الصيف كان هدفاً لاضطهاد الوكيل الجديد. وكان انفراجاً حقيقياً له عندما عاد الفصلُ الذي تعاد فيه الحيوانات ُإلى الاصطبل؛ وإذا كان سيضطلع بإطعامها، فإنه لم يكن يخاف الغرامات، وكان يعيش بسلام.

في أثناء الشتاء، علُم أن سيّدة القصر ستبيع قصرها، وأن جابي رسوم المرور ينوي أن يحصّله لنفسه.

أشاع هذا النبأُ الذعرَ بين الفلاحين وفكروا:

- «إن كان جابي رسوم المرور سيشتري هذه الملكية فسوف يرهقنا بالغرامات أكثر من سيدة القصر.

قصدوا سيدة القصر مجتمعين ورجوها أن تبيعهم هذه الأرض هم لا جابي الضرائب، وعرضوا عليها ثمناً أعظم. وافقت على ذلك، اجتمع الفلاحون ليتشاوروا في تمليك الناحية هذه الأرض. لكن الشيطان نفث بينهم الشقاق. واجتمعوا مرةً ومرتين دون أن يفلحوا في الاتفاق. وبعد أن أعيتهم الحيلُ قرَّ رأيهم على أن يشتري كلُّ واحد حصةً، في حدود وسائله المادية. وذلك ماوافقت عليه أيضاً سيدةُ القصر. وهكذا حصل جارُ «باكوم» على عشرين هكتاراً من الأرض مع حقّه في دفع نصف ثمن الشراء بأقساط سنوية. وعندما علم «باكوم» بذلك عضتّه الغيرةُ.

- سوف تُباع الأرضُ كلها، ولن يبقى منها شيء لي.

استشار امرأته قائلاً لها:

- غيرُنا يشتري، فعلينا أن نشتري أيضاً نحو عشرة هكتارات، وإلا استحال علينا أن نكفي أنفسنا: لقد خربّت بيتنا غراماتُ الوكيل.

وفكر في الوسيلة التي يجمع بها المال الضروري.

باع المهر، ونصفَ نحله، ووضع ابنه أجيراً في مزرعة، وهذا مع وَفْر مئة الروبل التي يملكها أمّن له نصف المبلغ.

أخذ إذن ماله ووقع اختياره على قطعة من خمسة عشر هكتاراً ومعها غابةٌ صغيرة، وقصد سيّدة القصر لعقد الصفقة، فيتفقان ويتصافحان ويذهبان الى المدينة لتثبيت العقد. دفع باكوم نصف الثمن نقداً؛ أما النصف الثاني فقُسط على سنتين. وعاد مالكاً للأرض.

وإذ اقترض من زوج أخته مايشتري به حبوباً، بذر الأرضَ التي أصبحت في حوزته، وتم كلُّ شيء على مايرام. وكفى مردود سنة واحدة لسداد ديون سيّدة القصر وزوج أخته. وأصبح، هو الفلاح باكوم ملاّكاً حقيقياً. صارت له الأرضُ التي يفلحها ويبذرها؛ وعلى أرضه صار يحصد الكلأ، وعلى أرضه ترعى حيواناته.

ويتهلّل «باكوم» فرحاً وهو ينظر إلى الحنطة تكبر والمراعي تخضر. وبدت له الأعشاب والأزهار مختلفة جداً. فعندما كان يمشي قديماً على هذه الأرض، كانت في نظره ماينبغي أن تكونه الأرض؛ أما الآن فهذه الأرض نفسها بدت مختلفة جداً.

— ٣ —

كان باكوم يعيش سعيداً، وكان كل شيء يجري وفق مايتمنّاه، عندما أخذ الفلاحون يقتحمون قمحه ومراعيه اقتحاماً متكرراً. وعبثاً رجاهم أن يكفّوا عن ذلك؛ لقد أمعنوا في اقتحامهم. فتارة كانت البقرات التي يتركها رعاتها تدخل المراعي، وتارة أخرى كانت الخيل هي التي تجري في حقول الحنطة.

اكتفى «باكوم» أولاً بطردهم، كان يغفر للفلاحين ويأبى أن يقدّمهم للقضاء. ثم مالبث أن فقد صبره وشكاهم إلى محكمة الإقطاعيين. ولم يكن يجهل أن مايفعله هؤلاء الفلاحون إنما كان بسبب ماهم فيه من ضيق، لابنيّة الأذى، لكنه فكّر: «بيد أني لايمكنني أن أغمض عينيّ دائماً، وإلا انتهى بهم الأمر إلى التهام كل شيء لي. لابد لهم من عبرة يتعظون بها».

استدعى أمام المحكمة فلاحاً، ثم استدعى فلاحاً آخر. لم تزد هذه الأمثلةُ الفلاحين المجاورين إلا تهييجاً، ولكي ينتقموا من باكوم أرسلوا مواشيهم عمداً ترعى على أراضيه. وذات ليلة دخلوا الغابة الصغيرة واجتثوا من على الأرض نحو عشر زيزفونات.

في اليوم التالي، شاهد باكوم، وهو يمر بغابته، شيئاً أبيض على الأرض، وعندما اقترب عرف أشجار الزيزفون التي نُزعت عنها قشرتُها. ولم يبق على الأرض سوى الأرومات. وليت المجرم اقتصر على أشجار التخوم، وليته ترك ولو شجرة واحدة واقفة! كلا بل لقد اقتُلع كلُّ شيء.

استرلى الغضبُ على «باكوم». وفكّر: «لو علمتُ من فعلَ هذه الفعلة لانتقمتُ شر انتقام!».

لمن يعزو هذه الإساءة؟ فكّر، وفكّر. بالتأكيد ذلك الخسيس سيميون. ومضى إلى فناء منزل سيميون فلم يعثر على شيء. فتشاجر معه؛ ولما ازداد ثقة بأنه مذنب أحاله إلى القضاء. نُظر في القضيّة وأصدرت المحكمةُ حكمها فيها فبرأت سيميون وردّت الشكوى بسبب انعدام شواهد الإثبات.

هذه التبرئةُ لم تزد باكوم إلا حدّة. وكاد يهين المشرف الملكي والقاضي، قائلاً لهما:

- أنتما تدعمان اللصوص. ولو قمتما بواجبكما لما برأتما اللصوص.

منذئذ بدأت حربٌ معلنةٌ بين باكوم وجيرانه وصلت إلى تهديده بأشد العقاب. كان بوسع باكوم أن يعيش كما يحلو له على أرضه، لكنه لما كان هدفاً لحقد الفلاحين شعر بالضيق في ناحيته.

في هذه الأثناء عَلم أن الناس أخذوا يهاجرون.

فكّر باكوم: «أنا لا شيء يجبرني على الانصراف من هنا؛ لكننا سنغدو أكثر يسراً لو هاجر بعضنا. سأشتري أرضهم لأوسّع أرضي وسأصبح أكثر رفاهية».

وذات يوم، كان باكوم في منزله عندما مرّ به غريبٌ، فلاح. دخل

منزل باكوم، وطلب إيواءه ليلةً، وافق باكوم، وأطعمه وسأله: من أين جاء؟ وأين ذهب؟ أجاب الفلاح أنه آت من بعيد، من ضفاف الفولغا حيث عمل. وتشعّب الحديث فروى الغريبُ كيف يهاجر الناسُ إلى هناك. وأن ذويه هاجروا ليقيموا هناكَ. وقد سُجِّلوا في سجلات الناحية وتلقّى كلٌّ واحد منهم عشرة هكتارات[1]. وأضاف:

- وهناك الأرض طيبة! فحيثما يزرع الشوفان تطلع سنابله متراصةً، عالية جداً بحيث لاتُرى الخيلُ. وتكفي خمس قبضات من السنابل لتصنع حزمةً. ورب مسكين وصل وهو لايملك غير ذراعيه يحرث اليوم خمسين هكتاراً من القمح، وباع في السنة الماضية حنطة محصوله بخمسة آلاف روبل.

تلظّى باكوم عند سماع هذه الحكاية. وفكّر:

- ماذا أفعل أنا هنا، في الضيق، في حين أستطيع أن أعيش في سعةٍ هناك؟ ماعليّ إلا أن أبيع أرضي وبيتي لأذهب إلى هناك، ومعي مالي لأبنيَ بيتاً وأستقر. إنها لخطيئة أن يعيش المرءُ هنا في ضيقٍ. بيد أني سأذهب لأرى بأم عيني وأتبيّن الحقيقة بشخصي.

عندما جاء الضيف أعدّ عدة السفر وسافر. وعندما وصل الفولغا نزل النهر على قارب بخاري حتى «سامارا»، ومشى بعد ذلك مسافة أربع مئة فرسخ وبلغ غاية رحلته.

لم يكن كذباً ماقيل له. كان الفلاحون في هذه البلاد في سعة من العيش. كانت الناحية ترحب بالمهاجرين، وتوزع عشرة هكتارات على الرأس. وكل من كان معه بعض المال كان يمكنه إضافةً إلى الهكتارات الممنوحة لزمنٍ، أن يحصل، بسعر ثلاث روبلات الهكتار، على أجود الأراضي، بقدر مايُريد، وإلى الأبد.

---

(١) - كانت تُوزَّع مجاناً، في المناطق النائية، ولاسيما في سيبيريا، أراضي الدولة على الفلاحين الذين يوافقون على الهجرة إليها.

بعد أن استعلم «باكوم» عن ذلك كله، عاد إلى منزله وباع كل ماكان عنده. باع أرضه وبيته وماشيته بسعر رخيص: ثم طلب أن يُمحى اسمه من سجلات الناحية، حتى إذا جاء الربيع سافر مع ذويه إلى البلد الجديد.

— ٤—

وصل باكوم البلد الجديد مع ذويه. وسجل نفسه في سجلات قرية كبيرة، قدّم كأساً للذين تقدّموه وأدى ماعليه من حقوق لكل منهم. رُحّب به، وأُعطي أرضاً مقابل خمسة أنفس، أُعطي خمسين هكتاراً مع حق الرعي في أراضي الناحية. ابتنى بيتاً، واشترى ماشية كثيرة العدد؛ رأى نفسه أغنى مرتين مما كان عليه قبل. وماأعظم الخصب! خصب المراعي والأراضي المفلوحة. كان عنده كلُّ شيء وعلى قدر مايشاء: وعندما كان يقارن بين حياته الجديدة والحياة التي عاشها قبل، كان يجد نفسه أسعدَ عشر مرات، وكان كل شيء يبدو له أجمل عشر مرات.

هكذا رأى الأشياء في الأشهر الأولى، بينما كان يبني بيته ويستقر؛ لكنه لم يلبث أن أحسّ، بعد بعض الوقت، أنه في ضيق شديد. كان يود أن يبدأ كالآخرين في بذر حقوله بالقمح الأبيض، القمح التركي؛ لكن أراضي القمح كانت نادرة في الأراضي الممنوحة. كان القمح يُبذر في الأرض البكر التي اجتاحها العشب البري العالي ذو الريش، أو في الأراضي المستريحة. كانت الأرض تُزرع سنة أو سنتين ثم تترك ليطلع كل العشب البري قبل أن يبذروها مرة أخرى. الأرض الخفيفة كان يملك منها مَنْ شاءَ مايشاء. لكنها لاتُنبت غير الشيلم، ويتطلب القمح أرضاً قوية. وكان الجميع يطلبون الأرض القوية. ولم تكن متوافرةً للجميع: ومن هنا المشاجرات. فمن كان يملك شيئاً منها فلحها بنفسه إن كان ميسوراً، أما من كان أفقر فهو يبيعها للتجار ليدفع ضرائبه.

بذر «باكوم» في السنة الأولى أرضه بالحنطة العتيقة فأينع زرعها وغلّ، لكن أرضه كانت أقلّ كثيراً من أن تُطلع له الحنطة التي يرغب في جنيها؛ ولم تكن الأرض التي يملكها هي الصالحة لمثل ذلك؛ كان يريد أرضاً أفضل منها. لقي إذن تاجراً واستأجر أرضاً لسنة. حينئذ أتيح له أن يبذر كمية أكبر، وكان الحصاد جيداً. لكن هذه الأرض كانت بعيدة جداً عن القرية؛ وكان لابدّ لكي يصلها من السير خمسة عشر فرسخاً.

بيد أن باكوم رأى الفلاحين التجار يبنون منازل في الريف ويربحون مالاً كثيراً، ففكر:

– آه! لو أمكنني أن أشتري أرضاً لملكية أبدية لكان عندي، أنا أيضاً، المال والمنزل الريفي.

وبحث في ذهنه عن الوسيلة التي بها يشتري أرضاً لملكية أبدية.

على هذا المنوال عاش «باكوم» طوال خمسة أعوام، مستأجراً أراضي التجار ليبذرها قمحاً. وبما أن السنين كانت جيدة الغلّة وأن الحنطة حسنة الاستواء، فقد كان يربح بعض المال، وماكان عليه إلا أن يستمتع بحياته دون همّ استئجار الأرض كل سنة. لكن متاعبه كانت تتجدد دائماً: فما ان تعرض أرض للإيجار حتى يتهافت عليها أحدُ الفلاحين ويستولي عليها؛ وإذا وصل باكوم متأخراً لم يَدْرِ أين يبذر. وفي مرة أخرى، وبعد الاتفاق مع التجار، يستأجر حقلاً لدى الفلاحين؛ ويبذر ويفلح، وإذا بالفلاحين يدّعون عليه أمام القضاء، فتضيع جهوده سدىً. ليته يملك أرضاً له، له وحده! إذن لما ارتبط بأحد ولسارت أموره على نحو أفضل.

وإذ أخذ يبحث عن أرضٍ يشتريها لملكية دائمة، انتهى به الأمر أن عثر على فلاح يملك خمس مئة هكتار، أُصيب بالإفلاس وعزم على بيع أرضه بسعر رخيص. قصده «باكوم» وبعد نقاشات طويلة اتفق معه علي الثمن وهو ألف وخمس مئة روبل يدفع نصفها ويقسط نصفها الآخر. وأوشك العقدُ أن يُوَقَّع عندما توقف عند باكوم تاجرٌ عابر طريق ليطعم

جياده. قُدِّم الشاي، وبدأ الحديثُ، فأخبره التاجر أنه قادم من بلاد «البشكير»[1]. ففي هذا البلاد حصل على خمسة آلاف هكتار من الأرض بمبالغ ألف روبل. وأردف راداً على أسئلة باكوم:

– لم أحتجْ من أجل ذلك إلا أن أحوز على رضا المتقدّمين. أعطيتهم فساتين وبسطاً وصندوق شاي وسقيت كلاً منهم، وحصلت على الأرض بعشرين كوبيكاً الهكتار.

أخرج من جيبه صكّ البيع وأراه «باكوم»، وأضاف:

– ويمرّ بالأرض نهرٌ صغير، وهي مغطّاة كلها بالعشب العالي البري ذو الريش.

انهال عليه باكوم بأسئلته، فأضاف التاجر:

– وهناك الكثير من هذه الأرض التي لاتستطيع أن تدور حولها في سنة من المشي. كلها ملكُ البشكير، وهم جدٌّ سذّج، بحيث يمكن أن نحصل على الأرض بثمن بخس.

وفكّر باكوم:

– لمَ اشتري خمس مئة هكتار بألف روبل، وأستدين فوق ذلك، في حين أستطيع بهذا الألف أن أحصل على أرض لاندري مداها؟

— ٥ —

استدلّ باكوم على الطريق الذي يوصل إلى بلاد البشكير، وبعد أن استأذن التاجر، أعد عدّته للسفر. عهد إذن ببيته إلى زوجته، ومضى مع خادمه قاصداً أولاً المدينة المجاورة حيث تزوّد بالشاي والخمر والهدايا طبقاً لتعليمات التاجر.

---

(١) بلاد البشكير: شعب تتري كان يعيش على التخوم الأوروبية لجبال الاورال، وكان في هذه الحقبة، في حالة بداوة، لكنه كان يملك الكثير من الأرض البكر.

شرعا في السير. سارا وسارا؛ سارا خمس مئة فرسخ، وفي اليوم السابع بلغا قريةً من قرى البشكير. كان كل شيء جيداً كما أخبر التاجر. لقد خيّم البشكير في السهوب، بحذاء النهر الصغير، في خيامٍ من الصوف. وهم بدوٌ، لايفلحون الأرض، ولايأكلون الخبز، ويقضون وقتهم وهم يطوفون السهوب بخيلهم ومواشيهم.

وخلف خيامهم يربطون مهارهم التي ترضع أُمّهاتها مرتين في اليوم. ومن حليب الفرس يصنعون شراب «الكوميس»[1]، ويمخضون «الكوميس» ليستخرجوا الجبن. وشربُ الكوميس والشاي، وأكل لحم الخروف والعزف على الناي، ذلك هو عمل البشكير كله. إن هؤلاء الناس السمينين، المتألقين، الفرحين، الذين يقضون صيفهم معيّدين، جهلةٌ جداً ولايعرفون كلمةً من الروسية، لكنهم مضيافون جداً.

عندما رأى البشكير «باكوم» مقبلاً تركوا خيامهم وتحلّقوا حول القادم الجديد. استطاع باكوم، بفضل مترجم في مخيّمهم، أن يُفهمهم وأن يقول لهم أن ماجاء به إليهم هو رغبته في امتلاك الأرض.

احتفى به البشكير واقتادوه إلى أجمل خيمة في خيامهم؛ هناك أجلسوه على بسط وثيرة، وغطّوا قدميه بوسائد من الريش، وقدّموا له الشاي و«الكوميس». وإذ ذبحوا خروفاً أعطوه أجمل قطع فيه.

أرسل باكوم خادمه ليأتيه بالهدايا التي حملها في عربته وقدّمها للبشكير ووزّع عليهم ماحمله من الشاي. فرحوا بذلك؛ وتشاوروا بلغتهم وأمروا الترجمان بأن يُترجم. قال الترجمان:

إنهم يأمرونني بأن أقول لك إنهم يكنّون لك المودة. وإن من عاداتنا نحن أن نرحب بالغرباء أجمل ترحيب وأن نرد على هداياهم بهدايا من عندنا. فقلْ لنا ما الذي تريده في مقابل هداياك.

أجاب باكوم:

---

(١) كوميس: كلمة تترية تعني الشراب المتخمّر المصنوع من حليب الفرس.

- ماأحبه فوق كل شيء هو الأرض. فنحن في حاجة الى الأرض، ونحن في ضيق عندنا، والقليل الذي نملك من الأرض ليس بالخصيب. أما أنتم فعلى العكس؛ إن لديكم الكثير من الأرض، الأرض الطيبة. ولم أر قط أرضاً شبيهة بأرضكم.

ترجم الترجمان وتشاور البشكير مرة أخرى. لم يفهم باكوم كلمةً مما قالوه؛ إنهم يبتهجون ويصيحون ويضحكون. ويخيّم الصمتُ أخيراً وينظرون إلى باكوم، فيقول الترجمان للغريب:

- إنهم يأمرونني بأن أقول: اعترافاً بكرمك، إنهم يعطونك عن رضاً ماتشاء من الأرض. ماعليكَ إلا أن تشير بيدك إلى الأرض التي ترغب فيها حتى تغدو ملكك.

وبدأ النقاشُ بينهم.

سأل باكوم:

- ماذا يقولون أيضاً؟

أجاب الترجمان:

- يقول بعضهم إنه تجب استشارة الزعيم الذي لايمكن إبرام شيء دونه؛ ويقول آخرون: إن تدخله ليس ضرورياً.

-٦-

كانت المشاورة بينهم مستمرة عندما شوهد رجل بطاقيّة من جلد الثعلب يُقبل عليهم. فكفّ الجميعُ عن الكلام ونهضوا.

قال الترجمان:

- هذا هو الزعيم.

حينئذ تناول باكوم أجمل ثوب عنده وسفطاً فيه خمس ليبرات من الشاي، وقدّمها للزعيم، فقبلها وجلس في المكان الأول. عرض البشكير عليه القضية فأصاخ السمع ثم أخذ يضحك وقال لباكوم بالروسية:

- ليكن! الأرض موفورة: أشرْ الى الموضع، واختر ماتشاء من الأرض.

فكّر باكوم: «كيف! آخذ منها ماأشاء! يجب أن يكون كلٌّ شيء نظامياً، كيلا يأتوا ويستردوها مني بعد أن يكونوا قد قالوا لي: هذه الأرض لك».

وقال للزعيم:

- أشكرك على عرضك الكريم. أنتم تملكون الكثير من الأرض، وأنا لاأطلب الكثير منها. ينبغي أن أعلم فقط عن أي أرض تتنازلون، وأن نثبت حدودها، وأن تجري الأمور حسب الأصول؛ لأننا جميعاً ميّتون. وماتعطونه يمكن أن يخطر لأولادكم أن يستردوه.

قال الزعيم:

- ليكنْ! سنُجري الأمور طبقاً للأشكال القانونية.

قال باكوم:

- علمتُ أن تاجراً زاركم وأنكم تنازلتم له عن شيء من أرضكم، وأنكم أمضيتم له صكاً؛ فامنحوني إذن صكاً مثله.

فهم الزعيم، وقال:

ليكنْ. عندنا كاتبٌ موثّقٌ. وسنذهب معاً إلى المدينة المجاورة؛ وسنمضي صكاً ونغطّيه بجميع الأختام الضرورية.

قال باكوم:

- قلْ لي الآن مالسعرُ الذي تطلبونه.

- ليس لدينا سوى سعر واحد وهو ألف روبل باليوم الواحد.

أدهشت باكوم هذه الطريقة في حساب السعر، فلم يفهم. وسأل:

- كم هكتاراً يساوي ذلك؟

- مستحيل أن نعلم بالضبط مسبقاً. نحن نبيع بسعر كذا في اليوم. فالأرض التي تدور حولها في يوم من المشي هي ملكٌ لك. والثمن ألف روبل في اليوم.

دهش باكوم وقال:

- يمكننا أن ندور حول الكثير من الأراضي عندما نمشي يوماً كاملاً.

- حسناً! سيكون كل شيء على مايرام، لكن بشرط أن تعود، في نهاية اليوم الى المكان الذي انطلقت منه. وإلاّ فقدت مالكَ.

سأله باكوم:

- ومن يغرس الأوتاد حيثما أمرّ؟

- الأمر هكذا: سوف تختار المكان أنت نفسك، وسنقف نحن حيث تشاء وسنبقى فيه، بينما تقوم أنت بدورتك. وسيرافقك شبابنا على الخيل وسيغرسون الأوتاد حيثما تشاء. وسترتبط الأوتاد بعضها ببعض بثلم يخطّه المحراث بين الوتد والوتد. يمكنك أن تضمّ ماتشاء من الأرض، بشرط أن تعود إلى نقطة انطلاقك قبل مغيب الشمس: فكل ماتدور حوله ملكٌ لك.

راق هذا الترتيب باكوم. وتقرر أن يكون الانطلاق في اليوم التالي، في الفجر. وعاد الجميع إلى الحديث وشرب «الكوميس» والشاي، وأكل لحم الخروف. ثم أعطاه البشكير فراشاً من الريش ومضوا إلى النوم بعد أن تواعدوا على اللقاء غداً عند الفجر، ليقصدوا معاً الموضع المختار قبل طلوع الشمس.

-٧-

استلقى باكوم على فراش الريش، لكن همّ الأرض الأبدي منعه من أن يغمض له جفن. وفكّر:

ماأعظم العمل الذي قمتُ به هنا! سوف أُنشىء لنفسي مملكة صغيرةً تامةً. وأنا أستطيع أن أقطع في يوم واحد خمسين فرسخاً[1]، لأن النهار، في هذا الفصل طويلٌ طوال سنةٍ. وخمسون فرسخاً لاتعادل أقل من مساحة

(١) أي مايعادل اثنين وخمسين كيلو متراً.

عشرة آلاف هكتار وحينئذ سأغدو سيّد نفسي ولن أرتبط بأحد سأشتري ثيراناً لمحراثين، وأستأجر خدماً، وأفلح قطعَ الأرض التي تبدو لي أفضل القطع، وأُرعي ماشيتي فيما يبقى من الأرض.

على هذا النحو، قضى الليل كله دون أن يتمكن من النوم. ولم يَغْفُ لحظة إلا عند الفجر. أغفى وحلم.

حلم أنه مضطجع تحت هذه الخيمة ذاتها وأنه يسمع في الخارج قهقهات. ولما كان حريصاً على أن يعلم من الذي يقهقه هكذا، إذا به يثب من فراشه ويخرج من الخيمة؛ فيظهر له زعيمُ البشكير جالساً أمام الخيمة، يداه على بطنه وهو يقهقه. فيتقدم ويقول له، «مِمَّ تضحك؟» فإذا الذي أمامه ليس زعيم البشكير وإنما التاجر الذي توقف قديماً عنده وحدّثه عن السهوب. سأل التاجر عن أخباره. لكنه لم يعد يرى التاجر وإنما رأى الفلاح الذي استضافه ذات ليلة. لكنه ليس الفلاح وإنما هو الشيطان بعينه، قرناه في جبينه وقدماه ظلفاوان، وهو يضحك بملء فيه وينظر إلى شيء ما. فيتساءل باكوم: إلامَ ينظر هكذا؟ ومِمّ يضحك؟ فيدنو منه، وماذا يرى؟ يرى رجلاً نائماً، حافي القدمين يرتدي فقط قميصاً وسروالاً داخلياً، ناظراً إلى السماء، أبيض الوجه كالثوب الأبيض. وإذ حدّق فيه باكوم تعرّف على نفسه في هذا الرجل.

فيطلق باكوم صرخة ويستيقظ. يستيقظ ويفكر:

«باه! ماهذا إلا حلمٌ».

ويحاول أن يعود إلى النوم، لكنه يتبين أن الصبح سينبلج.

«يجب أن أوقظ الجميع، فقد حان موعدُ الانطلاق».

وينهض، ويمضي إلى عربته، ويوقظ خادمه، ويأمره بربط الخيل، وينادي البشكير.

وينهض هؤلاء، ويجتمعون، ويصل الزعيم بدوره، ويُحْمَل الكوميسُ والشاي. ويقدّمون شيئاً منهما لباكوم لكنه شديد الاستعجال، فيقول لهم:

- حان موعدُ الانطلاق، فلننطلقْ.

فيشرعون في السير جميعاً، بعضهم على الجياد، والبعض الآخر في العربات، وباكوم في عربته مع خادمه. لم يلبثوا أن بلغوا السهوب.

وبينما كان الفجر يطلع، بلغوا قمةَ رابيةٍ. ترجّل البشكير وشكّلوا جماعة واحدة. اقترب الزعيم من باكوم، وأراه بإصبعه البلد الذي يمتدّ أمامهم، وقال له:

- هذا البلد كله، ملكٌ لنا، كل ماتشمله بنظرك. فاخترْ.

اشتعل بريقٌ في عيني باكوم. لقد كانت الأرضُ تمتدّ حتى أبعد نقطة في الأفق، مفروشةً ببساط من العشب البري العالي ذي الريش، مستويةً مثل راحة اليد، سمراءَ مثل حبوب الخشخاش. أعشابٌ من جميع الأنواع. أعشاب عالية حتى الصدر تشير إلى مواقع الوهاد.

وينزع الزعيم طاقيّته التي من جلد الثعلب ويضعها على قمة الرابية. قال:

- هنا نقطة الاستدلال. سيمكث خادمكَ هنا. اترك مالك في الطاقية. ستنطلق من هنا وستعود إلى هذه النقطة ذاتها. كل ماتدور حوله سيكون ملكك.

أخرج باكوم ماله ووضعه في الطاقية، ونزع معطفه، ولم يُبقِ سوى قفطانه، ويشدّ زنّاره، ويتزوّد بقليل من الخبز في زوّادة صغيرة، ويعلق بجنبه زجاجة صغيرة ملأى بالماء، ويصّحح ساقيتي حذائه. ويستعد للانطلاق. ويفكّر لحظة: في أيّ اتجاه أسير؟ لكن الأرض جيدة في جميع الأرجاء. ويفكّر: «حيثما التفتنا وجدنا الأرض جيدة. سأمشي في جهة الشرق».

وإذ اتجه إلى جهة الشمس انتظر طلوعها.

وفكر: «لاوقت أضيّعه، يجب أن أستغل البرودة، فالمشي فيها أقل إجهاداً.».

اعتلى البشكير جيادهم، واستعدوا، من جهتهم، لنزول الرابيةكي يرافقوا باكوم. ولم تكد الشمس تبزغ في الأفق حتى انطلق باكوم ومضى عبر السهوب يتبعه الفرسان.

كان يمشي مشية متساوية، لاهي بالبطيئة ولا هي بالمستعجلة. وبعد فرسخ غرس وتداً، وانطلق من جديد. وعندما نشطت ساقاه أغذّ السير. سار وسار، وأمر بغرس وتد آخر أيضاً. التفت إلى الوراء: كانت الرابيةُ ظاهرة بوضوح، تنيرها الشمس المشرقة، وميّز عليها دون مشقة جمهور البشكير.

كان قد قطع إذ ذاك، حسب تقديره، نحو خمسة فراسخ. وبما أنه حمي خلع قفطانه، وشدّ زناره، وتابع طريقه. مشي أيضاً خمسة فراسخ، وأخذ الحرّ يشتدّ. رفع عينيه نحو الشمس ورأى أن وقت الفطور قد حان.

وفكّر:

هاأنا ذا في الربع الأول من نهاري، وفي النهار أربعة أرباع. لم يحن بعد وقت الانعطاف. لكني سأقلع حذائي فقط.

جلس أرضاً، وقلع حذائه، واستأنف سيره، بخطاً خفيفة نشطة. وفكّر:

«خمسة فراسخ ثم انعطف بعدها إلى اليسار الأرضُ جيدة هنا وهي أجود من أن أنعطف الآن. وكلما تقدّمتُ كانت أجود».

واستمر في طريقه، لايلوي على شيء. وفي لحظة أدار رأسه مرة أخرى: لم يكد يشاهد الرابية، وبدا البشكير عليها كالنمل الأسود. قال في نفسه: «هيا، يجب أن أنعطف هنا. فقد تجمّع لديّ الآن الكثير من الأرض».

أخذ العرقُ يتصبّب على وجهه، كما أنه عطش. وأثناء مشيه، تناول زجاجته وشرع يشرب منها. ثم غرس وتداً جديداً وانعطف إلى اليسار.

هاهو ذا يسير ويسير؛ العشب عال وكثيف، والحرّ يتضاعف، ويحسّ باكوم بشيء من التعب. إنه ينظر إلى الشمس ويتبيّن أن الوقت مايزال وقتَ الغداء. وفكّر: «حسناً! سوف أستريح لحظة».

ويتوقف، ويُخرج من زوادته قطعة خبز يأكلها واقفاً. لأنه قال في نفسه: لو جلستُ لتمدّدت على الأرض ولنمتُ.

ويظل هنا لحظة، ويسترد أنفاسه ويستأنف السير.

سار أولاً بخفة، إذ عاد إليه نشاطه بالطعام. لكن الحرارة تشتدّ ويتملكه النعاسُ. لقد كان تعبه عظيماً. فيقول في نفسه متشجعاً: «ساعة من الألم ودهرٌ من السعادة».

ظل يسير في وجهته نحو عشرة فراسخ؛ ولما كان على وشك أن ينعطف إلى اليسار أيضاً راعه منظرُ وهدة نضرة. فقال في نفسه:

«لايمكنني أن أترك هذه الوهدة خارج ملكي؛ فهنا يغلُّ القنب».

وتابع طريقه على خط مستقيم وقرّر ألا ينعطف إلا بعد أن يضمّ الوهدة إلى دائرته وأمر بغرس وتد.

ومرة أخرى، نظر إلى الرابية. فشقّ عليه تمييز جماعة البشكير، كانت تفصله عنهم نحو خمسة عشر فرسخاً على الأقل. وفكّر:

«جعلت الضلعين الأولين طويلتين جداً؛ ينبغي أن تكون هذه الضلع أقصر». قطع الضلع الثالثة بخطاً حثيثة. أخذت الشمس تنحدر بسرعة؛ رآها قريبةً من مغربها. لم يكد يسير فرسخين على هذه الجهة الرابعة؛ كان مايزال عليه نحو خمسة عشر فرسخاً من المَعْلم الرئيسي الذي ينبغي بلوغه.

يجب أن أتجه الآن نحو الهدف. ولاضير إن كانت أرضي غير منتظمة الجوانب فعندي مايكفيني.

ويتممّ شطر الرابية رأساً.

– ٨–

كان باكوم يسير رأساً إلى الرابية. كان منهكاً. تشقّقت قدماه، وآلمتاه ألماً فظيعاً، وتخاذلت ساقاه تحته. ودّلو يستريح. لكن كل توقّف كان

محظوراً عليه: فلن يبلغ حينئذ هدفه قبل مغيب الشمس. والشمس لاتنتظره؛ كانت تنحدر وتنحدر وكأنها ستسقط، وكأن هناك من يدفعها. فكر باكوم: «واأسفاه! أخشى أن أكون خُدعتُ. لقد وسّعتُ الدائرة. وماذا سيحلّ بي إذا لم أبلغ الهدف قبل الوقت المحدد؟ وماأبعده حتى الآن، وماأشد تعبي! أوه! وماذا لو فقدت روبلاتي وعنائي! سأضاعف جهودي وأحاول المستحيل».

وأسرع باكوم في مشيته. نزّت قدماه دماً، فلم يخفّف من جريه. إنه يركض ويركض لكن الهدف ظل بعيداً. تخلص من قفطانه ومن زجاجته، ونزع طاقيته وحذاءه ورماهما.

فكّر: «واأسفاه! أضاعني طمعي. لن أبلغ الغايةَ قبل مغيب الشمس».

خنقه الرعبُ، وضاق نفسه من جراء ذلك. واستمرّ يركض؛ جفّ حلقُه، ولصق قميصه وسرواله الداخلي بجلده من العرق. وأخذ صدره يرتفع ويهبط كأنه منفاخ الحدّاد، وقلبه يخفق كالمطرقة. لم يعد يحسّ بقدميه، وانطوى عرقوباه، وخارت قواه. لم يعد يفكر بالأرض؛ وغدا همه الوحيد ألا يسقط ميتاً من التعب. إن باكوم يخشى الموت، لكنه لاينفكّ عن الركض، وهو يفكر:

«بما أنني ركضتُ هذا المقدار، سأُعَدّ غبياً الآن إن توقفت».

إنه يسمع صرخات البشكير وصفيرهم فيزيده ذلك حميّةً للركض. ويستعجل وينهك نفسه، ويبذل آخر قواه. ويقترب من الهدف. فيميّز على الرابية كل واحد؛ جميع الأيدي تومىء إليه أن يستعجل. وهاهو ذا يشاهد الطاقية على الأرض، مع المال، والزعيم مقرفصاً على الأرض. ويداه على بطنه. فيعود حلمُ باكوم إلى ذاكرته.

قال في نفسه:

«الأرضُ موفورة، فهل سيُنعم عليّ الله بأن أحيا فيها؟ أوه! أنا نفسي أهلكتُ نفسي».

وتابع جريه. رفع عينيه نحو الشمس؛ كانت قانية الحمرة، شديدة العرض، تكاد تلامس الأرض، بل لقد لامستها؛ فهاإن حافتها السفلى تختفي عن النظر. وعندما يصل باكوم راكضاً سفح الرابية يختفي الكوكب.

أطلق باكوم آهةً اليأس، ورأى نفسه هالكاً. لكنه يفكر في أن الشمس إن غابت بالنسبة إليه، وهو عند سفح الرابية، إلا أن الذين في أعلى مايزالون يرونها. ويصعد جرياً، ويشاهد الطاقية. إنه النصر! ويتعثر باكوم ويتدحرج على الأرض لكنه يلامس بيده اليمنى الطاقية وهو يسقط.

قال له زعيم البشكير:

- ممتاز! مرحى، يافتاي. لقد ربحتَ ملكاً كبيراً.

هُرع خادم باكوم ليرفع سيّده، لكنه يتبيّن أن الدم يسيل من فمه. لقد مات باكوم. ويجلس الزعيم على الأرض ويداه على بطنه، وينفجر ضاحكاً.

... ثم ينهض ويتناول معولاً ويرمي به إلى الخادم، قائلاً:

- خذ هذا المعول لتحفر له حفرة.

ويعتلي جميعُ البشكير خيلهم وينسحبون تاركين الخادم قرب الجثة.

وحين بقي الخادم وحده، حفر حفرة بطول الجسم فقط، بطول ثلاثة أذرع، ودفن فيها باكوم.

قصـــة ايفـــان الغبـــي

ذات مرةٍ، كان في إحدى الممالك فلاحٌ غني له ثلاثة أولاد: سيميون المحارب، وتاراس البطين، وايفان الغبي[1]، وبنتٌ خرساء تُدعى ميلانيا.

دخل سيميون المحارب في خدمة القيصر[2]، ومضى تاراس البطين إلى المدينة ليتدرب عند أحد التجار؛ أما ايفان الغبي فقد ظل في بيته مطمئناً مع أخته الخرساء.

حصل سيميون المحارب أخيراً من القيصر، لفَرْط ماحارب، على رتبة عالية وأرض حسنة، مكافأة له. حينئذ استطاع أن يتزوج ابنة اقطاعي. لكن كان يُعوزه المالُ دائماً، وإن كان ملكه واسعاً ومرتّبه مرتفعاً؛ كان كل مايكسبه تنفقه امرأته، وكان دائماً خالي الوفاض.

ذات يوم ذهب إلى ملكه ليتسلم المزارعة. قال له وكيله:

- لاشيء عندي أسلّمك إياه. إذ لاماشية لدينا ولاخيل ولاثيران ولامحراث. اشترِ ذلك كله إن شئت أن تحصل على مردود.

حينئذ ذهب إلى والده الفلاح وقال له:

- أنت غنيٌّ، ولم تُعطني شيئاً. أنت مدين لي بالثلث؛ أعطني إياه لأتمكن من استغلال أرضي.

لكن الشيخ أجابه:

- لمَ أعطيك الثلث. وأنت لم تأتِ بشيء إلى البيت؟ سأجور على ايفان وابنتي.

---

(١) تصوّر الحكاياتُ الشعبية الروسية شخصية الأخ الثالث أبله وطيباً، لكنه ناجح في الحياة أكثر من أخويه اللذين يحتقرانه.

(٢) في خدمة القيصر: في الحكاية الروسية كلّ ملك يحمل لقب «قيصر».

ردّ عليه سيميون :

- ايفان غبي، وميلانيا خرساء. وهل هما بحاجة إلى شيء؟

أردف الشيخ :

- هيّا! ليقرّر ايفان بذاته.

ولما استُشير ايفان أجاب :

- فليكنْ، فليأخذْ حصته.

فأخذ حينئذٍ سيميون المحارب حصته، واستخدمها في أراضيه، وعاد يحارب مع القيصر.

جمع تاراس البطين أيضاً شيئاً من المال وتزوج ابنة تاجر؛ لكن لم يكن لديه المال الكافي، فقصد أباه وقال له :

- أعطني الثلث الذي يخصّني.

لكن الشيخ لم يكن أيضاً مستعداً لأن يسلّم تاراس الحصة التي يطالب بها. فقال له :

- أنتَ لم تأتِ بشيء إلى البيت. ايفان هو الذي كسب كلّ ماعندنا. ولاأريد أن أجور عليه، ولاعلى ابنتي.

قال تاراس :

- ايفان غبي، ولايمكنه أن يتزوج : فأية فتاة ترضى به زوجاً؟ لاحاجة به إلى المال، وكذلك الخرساء.

وأضاف مخاطباً ايفان :

- أعطني نصف القمح وسأترك لك كل آلات الحراثة؛ أما الحيوانات فلست أطالب بغير الفرس الشهباء التي لاتصلح للحراثة.

قال ايفان الذي أخذ يضحك :

فليكنْ!

وهكذا أخذ تاراس، مثل سيميون، حصته من الإرث. واقتاد الفرس الشهباء، وحمل إلى المدينة نصف القمح. أما ايفان فظل وحده مع حصان عجوز، يعيش في حقله، وهو يفلح الأرض ويُعيل أهله.

بيد أن رئيس الشياطين ثارت ثائرته حين رأى الإخوة الثلاثة يسوون قضاياهم تسوية وديّة، دون أي خصام، ويفترقون أصدقاء متحابين، فاستدعى ثلاثة شياطين صغار، وكلمهم بالكلام التالي:

- اصغوا إليّ. هناك ثلاثة إخوة، سيميون المحارب، وتاراس البطين، وايفان الغبي. وبدلاً من أن يختصموا كما ينبغي أن تكون الأمور، هاهم أولاء يعيشون وبينهم أحسنُ العلاقات. والخطأ يقع على عاتق ايفان الغبي فهو الذي أحبط مشاريعنا كلها وأفسد أعمالنا. اذهبوا والقوهم ثلاثتهم؛ اذهبوا وأفسدوا مابينهم إلى حدٍّ يسعون معه إلى اقتلاع العيون. هل تضطلعون بهذه المهمة.

قال الشياطين الثلاثة:

- نعم نضطلع بها.

- وكيف السبيل إلى ذلك؟

- السبيل إلى ذلك كالتالي: سنفقرهم أولاً حتى إذا لم يبق لديهم مايأكلونه سنجعلهم يتواجهون، يواجه بعضهم بعضاً، وحينئذ سيتقاتلون.

قال رئيس الشياطين:

- ممتاز. أرى أنكم تحسنون العمل. انطلقوا إذن، وإياكم أن تعودوا قبل أن تفرّقوا بين الأخوة الثلاثة. وإلاّ فأنذركم بأني سأسلخ جلودكم.

عاد الشياطين الصغار إلى مستنقعهم[1] ليتشاوروا. كيف ينجحون؟ تناقشوا طويلاً، وكان كلٌّ منهم يود لو يضطلع بأسهل مهمة. تُرك للقرعة أمرُ تقرير القسط الذي يعود لكل منهم في العمل المشترك، واتفقوا على أن من ينهي مهمته أولاً عليه أن يمدّ يد العون لرفيقيه. وبعد أن اقترعوا وحدّدوا

---

(١) إلى مستنقعهم: تريد العقائد الشعبية أن يكون المستنقع مقراً للأرواح الشريرة.

اليوم الذي يجتمعون فيه مرةً أخرى ليُطلع كلٌّ منهم رفيقيه على ماحقّقه من مشروعهم، افترقوا.

وفي اليوم الموعود، التقوا ثلاثتهم في مستنقعهم وتحادثوا عن مشروعهم. تحدّث الأول عن سيميون قائلاً:

- إن عملي يسير وفق المراد. سيذهب سيميون ليلقى أباه غداً.

سأله رفاقه عن الطريقة التي اتخذها لينجح.

- بدأتُ بإثارة شجاعة سيميون إلى الحدّ الذي تعهّد معه بإخضاع الدنيا كلها لقيصره. حينئذ عيّنه القيصرُ قائداً عاماً وأرسله ليحارب القيصر الهندي. وعندما التقى الجيشان بلّلتُ البارود في معسكر سيميون، وفي الليلة نفسها، ذهبت إلى القيصر الهندي، وصنعتُ له جنوداً من القشّ. وفي اليوم التالي، نشبت المعركة؛ وعندما رأى محاربو سيميون جنود القش يسيرون نحوهم ارتعبوا. وإذ رأى سيميون ذلك، أمر بإطلاق النار، لكن البنادق والمدافع أبتْ أن تنطلق. استولى الذعر على جنود سيميون وفرّوا كالخراف؛ ولم يجد القيصر الهندي مشقة في تذبيحهم. حُقِّر سيميون، ونُزعت منه أملاكُه، وسيُعدم غداً. ولم يبق عليّ سوى أن أفتح له سجنه. سينتهي كلٌّ ذلك غداً. فمَنْ منكما أساعدُ؟

تحدث الشيطان الثاني الذي كُلِّف أمر تاراس قائلاً:

- إن عملي يسير أيضاً في الطريق الصحيحة. ولافائدة من مساعدتي فبعد هذا اليوم بثمانية أيام، ستتغيّر أعمال تاراس تغيّراً كليّاً. كان همّي الأول تضخيم بطنه ومضاعفة جشعه. وغدا طمّاعاً في أموال الآخرين حتى إنه كان يريد أن يمتلك كل مايراه. أنفق ماله كله في التملك. وهو مايزال يشتري حتى الآن، لكن بالمال الذي اقترضه. لقد حمّل نفسه عبئاً ثقيلاً بحيث لايمكنه التخلّص منه. وفي مدى ثمانية أيام تبلغ سنداتُه استحقاقها، وبما أني أفسدت بضاعته كلها فسوف يعجز عن مواجهة التزاماته، وسيمضي قدماً إلى أبيه.

وسئل الشيطان الثالث عن حالة عمله، فقال:

- لاأدري ماذا أقول لكم. كل شيء عندي يسير من سيء إلى أسوأ. بصقتُ أول الأمر في شراب التفاح الذي لايفان كي أُفسدأحشاءه. ثم قصدتُ حقله، ولأحول بينه وبين الحراثة، صلّبتُ الأرض حتى صارت كالحجر، ظاناً أنه لن يستطيع الهرب. لكن الغبي وصل بمحراثه وفتّت المدر. لقد بذل طاقة عظيمة بحيث أن عمله تمّ مع ذلك. وماذا فعلت؟ كسرتُ محراثه. لكنه عاد إلى المنزل وحمل محراثاً آخر وأخذ يحرث مرة أخرى. وحينئذ دخلتُ تحت الأرض وقبضتُ على المحراث؛ لكن تعذّر إيقافه لفرط ماكان يشدّ بثبات؛ وبما أن سكة المحراث كانت مشحوذةً أدميتُ يدي. حرث حقله كله ماعدا شريطاً أخيراً. وأنا بحاجة إلى مساعدتكما ياأخويّ، لأننا إن لم نتغلب على الغبي فإن تعبنا سيذهب أدراج الرياح. فما دام يشتغل سيظلّ يطعم أخويه، وسيظلان بمأمن من الفاقة.

تعهد شيطان سيميون المحارب بالعودة في اليوم التالي، وبعد ذلك افترقوا.

- ٢ -

لم يبق على إيفان سوى شريط إذا فلحه انتهى كلُّ شيء. عاد ليستأنف العمل. كان يشكو بطنه، لكنه استمر مع ذلك في عمله، مخلّصاً سكّته من الأرض التي كانت تلتصق بها، مديراً محراثه ليشرع في ثلم جديد.

وبينما هو يبدأ ثلماً جديداً. أحس أن جذراً أوقفه. كان ذلك هو الشيطان الذي غاص تحت الأرض وأمسك بالمحراث وتشبّث به.

قال ايفان في نفسه:

- هذا شيء فريد. إذ لم يكن في هذا الموضع جذور، مع أن هذا بالتأكيد جذر. ولما أدخل يده في قاع الثلم، نبش قليلاً فوقعت أصابعه على شيء رخو. قبض عليه وسحبه من الثلم. كان أسود كالجذر وكان يتحرك.

- أوه! أوه! شيطان صغير حي! باله من حيوان حقير!

رفع ايفان يده ليسحق رأسه على الأرض. أرسل الشيطان تأوهاً؛ قال:

- لاتقتلني، فسوف أفعل كل ماتريده مني.

- وماذا ستفعل لي؟

- ماتشاء. ماعليك إلا أن تتكلم.

حكّ ايفان قذاله.

- إني أتألم من بطني؛ أتستطيع شفائي؟

قال الشيطان:

- نعم

- إذن، اشفني.

انحنى الشيطان، نبش الأرض بمخالبه واقتلع جذراً ذا ثلاثة رؤوس حادة قدّمه لايفان، وقال له:

- خذْ هذا الجذر، ابلعْ من هذه الرؤوس وستشفى من دائك.

أطاعه ايفان واقتطع أحد الرؤوس الثلاثة وابتلعه فشفي.

أخذ الشيطان يتأوه من جديد وقال:

- اتركني، سأغوص تحت التراب، وأعدك ألا أتجوّل بعد الآن.

قال ايفان:

- فليكنْ، واللهُ معك!

لم يكد ايفان بلفظ اسم الله حتى ابتلعت الأرض الشيطان وكأنه حصاة في قاع الماء إذ لم يترك وراءه سوى ثقب.

وضع ايفان في طاقيّته رأسي الجذر الباقيين واستأنف حراثته. فأنهى الشريط الأخير. فأدار المحراث وعاد إلى منزله.

عندما حلَّ الدوابَ دخل مسكنه الخشبي: كان أخوه سيميون المحارب جالساً مع زوجته إلى المائدة لتناول وجبة المساء. لقد نُزعت منه جميعُ

أملاكه. وبشقّ النفس استطاع أن ينجو من السجن ليبحث عن مأوى له في بيت أبيه.

قال سيميون لدى مرأى ايفان:

- جئنا لنلقاك. أَطعمْنا أنا وزوجتي مالم نجد ملجأً آخر.

قال ايفان:

- فليكنْ! عيشا هنا بطمأنينة.

ومضى ليجلس على المقعد. لكن امرأة سيميون، وهي ابنة إقطاعي، أعربت عن تضايقها من رائحة الغبي. وقالت لزوجها:

- ليس بوسعي أن آكل بجنب فلاح خبيث الرائحة.

حينئذ خاطب سيميون المحارب ايفان قائلاً:

- استقبحت امرأتي رائحتك. ينبغي لك أن تذهب وتأكل في البهو.

قال ايفان:

- فليكنْ! هاقد جاء الليل، وعليّ أن أطعم الحصان.

وإذ قطع شيئاً من الخبز، تناول قفطانه وذهب إلى الفناء من أجل حراسة الليل.

غدا شيطان سيميون المحارب حراً منذ الآن؛ جاء، كما وعد، ليضمّ جهوده إلى جهود رفيقه للتغلب على ايفان الغبي.

سلك طريق الحقل حيث ظنّ أنه سيلقى صاحبه: ويصل ويبحث فلا يجد أحداً. لاأحد سوى الثقب. قال في نفسه:

- هيا. قدتكون أصابت صاحبي مصيبة. وعلي أن أحلّ محله. لكن الحقل محروث بأكمله. وسأنتظره حيث يُحشّ الكلأ.

مضى إلى المرج، ونشر على العشب طبقة من الطين. عند مطلع الفجر، أنهى ايفان حراسة الليل، فأطلع منجله وانطلق لحشّ مرجه.

وصل وباشر من فوره عمله. القى بمنجله مرة ومرتين: لكن العشب قاوم، والمنجل لم يقطع؛ حدُّ المنجل بحاجة إلى شحذ. وعبثاً بذل ايفان جهده، كان مستحيلاً أن يصل إلى شيء. فقال:

- سأعود إلى البيت لآتي منه بحجر الشحذ مع مؤونتي من الخبز، ولو أني بقيتُ ثمانية أيام هنا، فلن أترك هذا المرج قبل أن يُحصد بأجمعه.

هذه الكلمات التي سمعها الشيطان حملته على التفكير. قال:

- ماأشد عناد هذا الغبي! سيشقّ عليّ التغلبُ عليه. وعليّ أن أعثر على وسيلةٍ أخرى.

وبعد أن شحذ ايفان منجله استأنف عمله.

اندس الشيطان بين العشب، أمسك بيده رأس المنجل وأغرقه في الأرض. لكن ايفان بذل كثيراً من الطاقة وفرغ من حصاده، بالرغم من الصعوبات التي أثارها الشيطان، ولم يبق عليه سوى شريط أخير يحصده، بحذاء المستنقع.

انسلّ الشيطان إلى المستنقع وقال في نفسه:

- سأمنعه هذه المرة ولو اضطررتُ أن أفقد جميع قوائمي.

قصد ايفان المستنقع. كان العشب نادراً؛ لكن المنجل لم يعد يعمل. اهتاج ورماه من غضبه بكل قوة ذراعه.

لم يصمد الشيطان للضربة؛ ولم يتملص منها إلا بجهد بالغ، فيشعر أن مشروعه لايسير البتّة، ويلجأ إلى شجرة عظيمة. لكن ايفان بحركة من منجله يصيب الشجرة ويقطع ذنب الشيطان. انتهى من الحصاد، وكلّف أخته تجميع الكلأ، وأخذ منقباً وذهب لحصاد الشيلم.

ويصل إلى حقل الشيلم ويلاحظ أن جميع السنابل متشابكة. هذا من عمل الشيطان الذي مرّ من هنا. ويعود ايفان إلى بيته ويترك المنقب الذي لم ينفعه، ويستبدل به منجلاً، وهاهوذا يقطع قطعاً حسناً وكثيراً فلم يلبث الشيلم أن أصبح على الأرض.

قال:

- والآن دور الشوفان.

فيسمعه الشيطان ذو الذنب المقطوع ويفكر: «لم أستطع أن أطوله في الشيلم، لكني سأطوله في الشوفان. لننتظر الصباح فقط.

ويصل الشيطان عند مطلع النهار إلى حقل الشوفان فإذا بالسنابل قد قُطعت. ذلك أن ايفان قضى الليل وهو يعمل كي لا يفقد من الحب إلا الأقل.

غضب الشيطان:

- قطع الغبي كلّ شيء، وأنا منهوك. لم يصبني، حتى في الحرب مثل هذا الأذى. هذا اللص لاينام. من المستحيل الوصول قبله. لم يبق عليّ إلا أن أندسّ بين الأكداس لكي أجعلها تتعفّن كلها.

واتجه نحو أكداس الشيلم، وانسل بين حُزمه وأخذ يُعفّنها. تعب في تسخينها وانتهى بأن نام.

بعد أن ربط ايفان الحصان بالعربة ذهب لجلب حزم الشيلم. وسرعان ماوصل إلى الحزمة التي كمن عندها الشيطان؛ ألقى بمذراته في الكدس فأصاب مؤخرة الشيطان. وسحب المذراة، فماذا رأى في طرفها؟

شيطاناً صغيراً حياً ينقصه نصفُ ذنبه. أخذ يتلوى ويرتعش ويحاول الفرار.

- أوه! ياللحيوان الحقير! أهذا أنتَ مرة أخرى؟

أجاب الشيطان:

- أنا، أنا غير الذي عرفته. الذي رأيته أخي. أما أنا فكنتُ عند أخيك سيميون.

- لتكنْ من تكون، لاأهمية لذلك. سأعاملك كما عاملتُ الآخر.

أوشك أن يحطم رأسه على الأرض لولا أن أخذ الشيطان يستعطفه:

- اتركني. أعدكَ ألا أعود إليها ثانية، وأن أفعل لك كل ماتشاء.

- وماذا تحسن أن تفعل؟

- أحسن صنع الجنود بأي شيء كان.

- جنود؟ وما الفائدة من ذلك؟

- تصنع بهم ماتشاء: الجنود يصلحون كل شيء.

- أيعرفون الغناء؟

- نعم.

- إذن، اصنعْ لي بعض الجنود.

أجاب الشيطان:

- خذْ حزمة الشيلم هذه، واضربْ سنابلها بالأرض وقلْ هذه الكلمات: «عبدي يأمر أن تكفّي عن كونك حزمةً وأن تتحول كل سنبلة من سنابلك إلى جندي».

تناول ايفان الحزمة، وهزّ سنابلها على الأرض ولفظ الكلمات المطلوبة. تناثرت الحزمة وتحوّلت سنابلها إلى جنود يتقدمهم بوّاقٌ ينفخ في بوقه وطبّال يقرع طبله.

أخذ ايفان يضحك، وقال:

- انظرْ، ماأجمل هذا! إنه مسلٍّ؛ هو بهجة البنات...

قال الشيطان:

- ستتركني الآن انصرف.

- لا. لن أتركك الآن. أريد أن يعود الجنودُ سنابل، وإلاّ ضاعت حبّاتُ الشيلم. علّمني الطريقة التي أرجعهم حزماً، لكي استخرج حبّها بالمدقّة.

أجاب الشيطان:

- ماعليك إلا أن تقول: «ليكنْ عددُ السنابل بعدد الجنود. إن عبدي يأمر أن يتحول الجنود إلى حزم».

فعل ايفان ماأشار به الشيطان وتحوّل الجنود إلى سنابل. حينئذ أخذ الشيطان يتوسّل ويتأوه.

- دعني، الآن.

قال ايفان الذي وضعه على الأرض وقد أمسكه بيد وسحب المذراة باليد الأخرى:

- ليكن الله معك!

لكن لم يكد ايفان يلفظ اسم الله حتى ابتلعت الأرضُ الشيطان مثل حصاة في قاع الماء، ولم يترك وراءه سوى ثقب.

عاد ايفان إلى منزله فوجد أخاه الثاني تاراس جالساً إلى المائدة مع زوجته لتناول وجبه المساء. لم يستطع تاراس البطين أن يفي بالتزاماته فبحث عن ملجأ لدى أبيه. قال عند مرأى أخيه:

- ايفان، أطعمنا، زوجتي وأنا إلى أن أعود غنياً.

قال ايفان:

- فليكن! عيشا مطمئنين هنا.

ثم خلع قفطانه وجاء ليجلس إلى المائدة، لكن التاجرة قالت لزوجها:

- يستحيل عليّ أن آكل مع «الغبيّ»؛ فرائحةالعرق تفوح منه.

حينئذ خاطب تاراس البطين أخاه قائلاً له:

- ايفان، رائحتك خبيثة. ليتك تذهب وتأكل في البهو.

قال ايفان:

فليكنْ. على كل حال، عليّ أن أخرج لإطعام الحصان ولحراسة الليل.

أخذ قطعة من الخبز وارتدى قفطانه ومضى إلى الفناء.

- ٥ -

عاد شيطان تاراس البطين الذي تحرّر بعد إكمال مهمته، عاد للبحث عن رفيقيه ليساعدهما على «الغبي»، كما تعهّد بذلك.

ويصل حقل ايفان، فيبحث ويبحث: لاأحد. لاشيء سوى ثقب. ويقصد المرج ويبحث. لاشيء سوى ذنبٍ في المستنقع، وبين الشيلم ثقبٌ آخر. ففكّر:

- آه! ربما أصاب رفيقيّ مكروهٌ وعليّ أن أحلّ محلهما وأن أناضل وحدي ضدّ ايفان.

وينطلق بحثاً عن ايفان. لكن «الغبي» الذي لم يعد له شغل في الحقل حيث انتهى من مهمته، كان قد قصد الغابة، وعكف وفأسهُ في يديه، على قطع الأشجار.

كان قد وجد أخوا ايفان منزله ضيّقاً عليهما ضيقاً شديداً، فأمرا «الغبيّ» ببناء منزل آخر لهما.

بلغ الشيطانُ الغابةَ بسرعة واندسّ بين الأغصان وتهيّأ لعرقلة عمل ايفان.

شقّ ايفان شجرة ليقطعها ويرميها في مكان فارغ، ودفعها بشدّة، لكن الشجرة انحنت إلى الجهة غير المطلوبة، فتعلّقت أغصانها بأغصان الأشجار المجاورة. تناول ايفان مذراةً طويلة وحاول تخليصها؛ لكنه لم يتوصل إلى إسقاطها في الموضع المحدّد إلا بعد جهود هائلة.

حينئذ انتقل بفأسه إلى شجرة أخرى. فلقي المشقة نفسها في اجتثاثها.

تصدّى لشجرة ثالثة، فحدث الشيءُ نفسه. واحتاج لينجح في عمله إلى بذل طاقة جبّارة.

كان قد قدّر أنه سيقطع في يومه خمسين جذعاً فتياً، ولم يكد يتجاوز العشرة عند حلول الظلام.

أحسّ بأنه منهوك. كان البخار ينبعث من جسمه كما ينبعث الضباب في الغابة؛ لكنه تابع عمله.

وسقطت شجرةٌ أخرى تحت ضرباته؛ لكنه أحسّ حينئذ في ظهره بألم حادٍ جداً قطعه عن عمله. فترك فأسه على الأرض ليستريح قليلاً.

أفرح هذا المنظر الشيطانَ الصغير، ففكّر:

- ممتاز! سيترك عمله. وسأستمتع أنا أيضاً، بلحظة من الراحة.

وجلس مفرشخاً على غصن وكلّه سرور.

لكن ايفان يقف فجأة، ويتناول فأسه، ويلوّح به ويقذفه بكل قوة ذراعه، وإذا بالشجرةالتي ضُربت بعنف شديد تنهار بضربة واحدة، ولانقصافها قرقعة هائلة.

لم يتسع الوقتُ للشيطان كي يسحب ساقيه. وينكسر الغصنُ الذي كان جالساً عليه، أثناء سقوطه، وتعلق إحدى قوائمه، ويقطع ايفان الغصن، وفجأة يشاهد الشيطان حياً. فيدهش ويقول:

– آه! ياللحيوان الحقير! أهذا أنتَ، أيضاً؟

قال الشيطان:

– أنا غير الذي عرفته. أنا كنتُ عند أخيك «تاراس».

– لتكنْ من تكون، لاأهمية لذلك. سأعاملك كما عاملتُ الآخرين.

ورفع فأسه وأوشك أن يحطم رأسَ الشيطان، فإذا بالشيطان يستعطفه وهو يتأوه قائلاً:

– اعفُ عني. سأفعل لك كلَّ ماتشاء.

– وماذا بوسعك أن تفعل لي؟

– سأصنع لك كلَّ الذهب الذي يحلو لك.

– حسناً! اصنعْ لي شيئاً منه.

حينئذ قال له الشيطان:

– ماعليك إلا أن تأخذ أوراق السنديان وتفركها في يديك. سيقع الذهب على الأرض.

أمسك إيفان بالأوراق وفركها في يديه فوقع الذهبُ على الأرض. قال:

– هذا رائعٌ لتسلية الأطفال.

قال الشيطان:

– دعْني إذن.

– فليكنْ!

أخذ ايفان مذراته وأطلق سراحه، قائلاً:

- ليكن الله معك!

لكن ايفان لم يكد يذكر اسم الله حتى ابتلعت الأرضُ الشيطان مثل حصاة في قاع الماء، غير تارك وراءه سوى ثقب.

- ٦ -

عندما انتهى الكوخُ الخشبيّ الجديد، انتقل إليه الأخوان للإقامة فيه. أتمَّ ايفان أعماله الزراعية، صنعَ جعةً ودعا سيميون وتاراس للاحتفال عنده. لكنهما أجاباه بالرفض. قالا:

- نحن نعلم حقّ العلم ما احتفال الفلاّح.

اكتفى ايفان إذن بإيواء الفلاحين والنساء لبعض الوقت. إلى أن ابتهجوا قليلاً. ثم خرج إلى الشارع لينظر إلى رقصات الفتيات.

وعندما اقترب من حلقاتهن طلب اليهن أن يغنين المدائح له، قائلاً:

- سأعطيكن شيئاً لم ترينه قط.

قهقهت الفتياتُ وغنّين مدائح لايفان. فلما انتهى الغناءُ قُلن له:

- أعطنا الآن ماوعدتنا به.

أجاب:

- سأعطيكن إياه في الحال.

أخذ منخلاً ومضى إلى الغابة.

قالت الفتيات وهنّ يضحكن:

- أوه! ياله من غبي!

تركنَ التفكير فيه عندما رأينه يعود راكضاً، وفي منخله شيءٌ يلمع. قال لهن:

- أتُردْنَ شيئاً من هذا؟

- طبعاً، نريد.
تناول من المنخل قبضةً من القطع الذهبية ورماها للفتيات.
قالت الفتيات وهنّ يرتمين على القطع التي تدحرجت على الأرض:
- آه! أبونا الصغير...
وهُرع الفلاحون وأخذوا يتخاطفون القطع. وكان الزحام شديداً جداً حتى إن عجوزاً أوشكت أن تُدهس.
أخذ ايفان يضحك:
- لماذا تؤذون جدةً، ياأغبيائي الصغار؟ لاتتزاحموا هكذا. فما يزال لديّ شيء من هذه القطع وسأعطيكم إياه.
ورمى لهم قبضات أخرى من الذهب.
هُرع الجمهورُ الذي كان عدده يتزايد. فرغ المنخل وظلوا يطلبون ذهباً. فقال لهم:
- لا، كفى ذهباً هذه المرة. وستحصلون عليه في يوم آخر. لنُغَنِّ الآن ونرقص.
استأنفت الفتيات أغنياتهن. قال لهن:
- ليست جميلةً هذه الأغنيات التي تغنينها.
- أتعرف أجمل منها؟
- سترينَ. اصغين.
ومضى إلى البيدر، وأخذ حزمةً، وضرب السنابل بالأرض، كما رأى الشيطان يفعل، ولفظ الصيغة التالية:
- إن عبدي يأمر أن تنتهي من كونكِ حزمةً، وأن تتحوّل كل سنبلة من سنابلك إلى جندي.
تناثرت الحزمةُ، وتحولّت سنابلُ الحزمة إلى جنود يتقدّمهم الطبالون الذين يقرعون طبولهم والبوّاقون الذين ينفخون في أبواقهم. أمر ايفان الجنود بأن يسيروا في رتلٍ معه، في الشارع وهم يغنّون، مثيرين دهشة

الناس. وعندما انتهى الجنود من غنائهم، عاد ايفان بهم إلى البيدر بعد أن منعهم من اللحاق به، وهناك حوّل الجنود إلى حزم، ورجع إلى بيته ونام.

- ٧ -

في صباح اليوم التالي، جاء سيميون المحارب، الأخ الأكبر، بعد أن أُعلِم بما جرى عشية أمس، ليلقى ايفان، وقال له:

- أَرني من أين أتيت بجنودك وأين وضعتهم.

-وماذا تريد أن تفعل بهم؟

- وكيف، ماأريد أن أفعل بهم؟ لكننا نستطيع أن نفعل كلّ شيء بالجنود، نستطيع أن نحتل امبراطورية!

تعجب ايفان:

- لمَ لم تقل لي ذلك قبل الآن. سأصنع لك ماتشاء من الجند. فلقد حصدْنا، الأختُ وأنا كمية كبيرة.

وقادِ سيميون إلى البيدر، وقال له:

- سأصنع لك جنوداً، لكن بشرط أن تعيدهم، لأننا إذا كان علينا أن نطعمهم أكلوا القرية كلها في يوم واحد.

تعهد سيميون أن يقتاد الجنود بعيداً. بدأ ايفان. هزَّ حزمةً فخرجت منها سريةٌ. وهزَّ حزمةً ثانية فخرجت منها سريةٌ ثانية. واستمرّ في ذلك كما يتفق له حتى امتلأ الحقل بالجنود.

- هل يكفي هذا؟ ماعليك إلا أن تتكلم.

- هذا يكفي. أشكرك، ايفان.

قال ايفان:

- حسناً. إذا احتجتَ إلى غيرهم، ماعليك إلا أن تعود، وسأصنع لك غيرهم. فليس ينقصنا القشُّ، بالذات.

خطب سيميون المحارب في المحاربين، ورتّبهم بحسب جميع قواعد الفن العسكري، ألقى اوامره، وسار للحرب.

لم يكد يبتعد حتى أقبل تاراس البطين. فلقد سمع، هو أيضاً، عن أنباء حوادث البارحة. فسأل هو أيضاً ايفان:

- هلاّ قلتَ لي أين تجد الذهبَ؟ لو استطعتُ أن أحصل عليه بالسهولة التي تحصل عليه بها أنت لجمعتُ، على الفور، بهذا الذهب ذهبَ العالم بأسره.

هتف ايفان متعجباً:

- حقاً؟ لمَ لمْ تقل لي ذلك قبل الآن. سأصنع لك ماتشاء من الذهب.

- يكفيني ثلاثة مناخل.

قال ايفان:

- ليكنْ! اتبعني إلى الغابة، واربط حصانك إلى عربته لكي نتمكن من حمل كل شيء.

ويمضي كلاهما إلى الغابة. ويفرك ايفان في يديه أوراق السنديان. فتتجمع كومة كبيرة من الذهب أمام تاراس.

- أتريدُ أيضاً؟

قال تاراس وقد امتلأ فرحاً:

- يكفيني هذا هذه المرة. أشكرك، ايفان.

- حسناً، حسناً. إذا احتجت إلى شيء منه فما عليكَ إلا أن تأتي، سأصنع لك غير هذا. فالأوراقُ موفورة.

حمّل تاراس العربة إلى حافتها وذهب يتاجر: هاهما الأخوان مسافران، أحدهما يحارب والآخر يتاجر. احتل سيميون المحارب مملكةً لفرط ماحارب، وأحرز تاراس البطين ثروة لفرط ماتاجر.

جاء يوم التقى فيه الأخوان؛ قال كلٌّ منهما للآخر ماجرى له: حكى تاراس من أين جاء بماله، وحكي سيميون من أين جاء بجنوده.

حينئذ قال سيميون المحارب لأخيه:

– أنا احتللتُ مملكة وأعيش سعيداً. لكن المال هو الذي ينقصني. فليس لديّ منه مايكفي لإطعام جيشي.

فأجاب تاراس البطين:

– وأنا كسبتُ الكثير من المال؛ لكن ليس لديّ مَنْ يحرسه، وهذا يقلقني.

فكّر سيميون المحارب لحظةً، وقال لأخيه:

– اتبعْني إلى منزل ايفان. سأطلب منه جنوداً آخرين أعطيك إياهم لتحرس مالك؛ وأنت ستطلب منه مالاً غير مالك أستخدمه لإطعام جنودي.

وهاهما يذهبان إلى منزل ايفان. قال له سيميون:

– أنا بحاجة إلى مزيد من الجنود. فاصنعْ لي جنوداً.

أومأ ايفان برأسه أنْ «لا»:

– لاأريد أن أصنع لك جنوداً آخرين دون أن أعرف الدافع إلى ذلك.

– لكنك وعدتني بذلك!

أجاب ايفان:

– نعم، وعدتك بذلك، لكني لن أصنع لك بعد الآن جنوداً.

– ولم لاتريد أن تصنع لي، أيها الغبي؟

– لأن جنودك قتلوا رجلاً، مؤخراً. كنتُ أدفع محراثي بحذاء الطريق، عندما مرّت امرأةٌ مسكينة تبكي خلف نعشٍ، فسألتها: «ومن فقدت»، أجابت: «زوجي، قتله جنودُ سيميون في الحرب». وكنتُ أعتقدُ أنا أن الجنود لاعمل لهم سوى الغناء! فبما أنهم قتلوا رجلاً، لن أعطيك

جنداً بعـد الآن وأبى أن يتـراجع عن كـلامـه . ورفض أن يصنع جنوداً آخرين .

طلب تاراس بدوره من الغبي أن يصنع له ذهباً غير ذلك . أومأ ايفان برأسه أنْ «لا» .

– لاأريد بعد الآن أن أصنع لك ذهباً بغير داعٍ .

– لكنك وعدتني بذلك .

قال ايفان :

– وعدتك بذلك ، لكني لن أصنع لك ذهباً بعد الآن .

– ولمَ لاتريد أن تصنع لي ، أيها الغبي؟

– لأن ذهبك سرق بقرة ميخايلوفنا .

– كيف ، سرق؟

– نعم ، سرق! كان لميخايلوفنا بقرة تُطعم بحليبها أولادها . وذات يوم جـاءني أولادُها يطلبـون حليبـاً . فـقلت لهم : لكن أين البـقـرة ، يا ترى؟ فـأجابوني : إن وكيـل تاراس البطين جـاء يبـحث عن أمي ، ووضع في يدها ثلاث قطع ذهبية وقاد البقرة ، ومنذئذ لم يبق لدينا حليب» . وأنا إنما أعطيتك تلك القطع الذهبية لتسرّي عن نفسك ، فسرقتَ بقـرة هؤلاء الأطفال! لن أصنع لك بعد الآن قطعاً أخرى .

أبى «الغـبي» أن يتـراجع عن كـلامـه . رفض أن يصنع قطعـاً أخـرى . واضطر الأخوان أن يعودا صفر الأيدي .

وفي الطريق أخـذا يتـحدثان ويبحثـان عن الوسيلة التي تخلصهمـا من مأزقهما .

قال سيميون لتاراس :

– اصغِ إلـى مـايمكننا أن نفـعله . أعطني مـالاً للإنفـاق على جنودي وسوف أعطيك أنا نصف مملكتي وجنودي لحراسة كنوزك .

قبل تاراس الصفقة . وجرت القسمةُ ، وغدا الأخوان قيصـرين كليهما وغنيين كليهما .

كان ايفان يُعيل ذويه، بعد أن أصبح وحده في المنزل، فالحاً حقوله، مشتغلاً فيها مع أخته.

ذات يوم، مرض كلبُ الحراسة مرضاً أشرف معه على الموت. حرّكت ايفان الشفقةُ فحمّل الخرساءَ خبزاً وضعه في قبعته وخرج ليعطيه الحيوان المسكين. تمزّقت القبعةُ فسقط الخبزُ ومعه جذرٌ صغير. أكل الكلب الخبزَ والجذر، وماإن ابتلع الجذر حتى وقف على قائمتيه خفيفاً نشيطاً، يلعب ويركض وينبح ويحرك ذيله. شفي شفاءً تاماً مما أدهش والدي ايفان اللذين كانا يتبعان لعبه بعيونهما.

فسألا ايفان:

- كيف شفيته؟

- هكذا: كان عندي رأسا جذر شافٍ لجميع الأمراض فأكل الكلب أحدهما.

في هذا الزمن مرضت ابنةُ القيصر؛ وأعلن القيصر في جميع المدن والقرى أن من شفاها نال جائزة رائعة، وإذا لم يكن متزوجاً حظي بيد ابنته.

أُذيع هذا الخبرُ أيضاً في قرية ايفان.

قال له أبوه وأمه:

- أتعلم ماأعلنه القيصر في مملكته كلها؟ ومادام عندك جذرٌ اذهبْ واشفِ ابنة القيصر. وستعيش منذئذ في سعادة حتى آخر أيامك.

قال ايفان:

- فليكنْ!

تهيأ للسفر. وُضعتْ له ملابسُ لائقة، وخرج إلى درج المدخل وإذا به يرى فقيرة مشلولة الذراع.

– قيل لي إنك تشفي؛ اشفِ لي ذراعي، لأن من المستحيل أن ارتدي ثيابي دون مساعدة.

قال ايفان:

– فليكنْ!

أخرج مابقي من الجذر ومدّه إلى الفقيرة قائلاً لها أن تبلعه. بلعته الفقيرةُ فإذا بها تشفى بحيث حرّكت يدها في جميع الاتجاهات.

وصل والدا ايفان في هذه اللحظة ليودّعاه. وعندما علما بنبأ اعطائه الباقي من الجذر، وأنه لم يبق لديه مايشفي به ابنة القيصر، أنحيا عليه باللوم. قالا:

– أعطاه فقيرةً، أخذته الشفقةُ عليها، أما ابنة القيصر فلم يشفق عليها.

وأخذت الشفقة ايفان على ابنة القيصر. ربط حصانه بالعربة وملأ قاع العربة بالقش، وتسلّق المقعد.

– أين تذهب، يا«غبي»؟

– اشفي ابنة القيصر.

– لكن لم يبق معك ماتشفيها به!

قال وهو يسوط حصانه:

– وماأهمية ذلك؟

ويمضي، ويصل القصر؛ ولم يكد يضع قدمه على آخر درجة من درج المدخل حتى شفيت ابنة القيصر.

استخفّ الفرحُ القيصر. فاستدعى ايفان، وأمر له بملابس بديعة، وقال له:

– ستصبح صهري.

قال ايفان:

– فليكنْ!

وتزوّج ابنة القيصر.

مات القيصر بعد زمنٍ قصير؛ وخلفه ايفان. وهكذا غدا الأخوةُ الثلاثةُ قياصرةً.

\- ٩ -

عاش الإخوةُ الثلاثةُ وملكوا.

لم يبق لسيميون المحارب من رغبةٍ يرغب فيها. فقد أضاف إلى الجنود الذين صنعهم ايفان من حزم الشيلم، جنوداً آخرين كثراً، إذ أمر، في مملكته، أن تُقدِّم له الأسرُ جنوداً، بنسبة جندي واحد لكل عشر أسر، جنوداً طوال القامة، أصحاء الجسم، أشدّاء، فجنّد، بهذه الطريقة جيشاً كثير العدد مدرَّباً. وإذا مارفض أحدٌ الطاعةَ بعث جنده وفرض مشيئته في كل مكان. فخافه كلُّ واحد.

عاش عيشةً هانئة. فكل ماتخيّله دماغه، وكل مارأته عيناه، حصل عليه. كان جنوده يجوبون البلاد ويأخذون له كلَّ مايشتهيه.

لم تكن حياة تاراس البطين أقلّ رغداً. إذ لم ينفق المال الذي جاءه من «الغبي»، بل زاده زيادة عظيمة. وأدخل النظامَ إلى مالية مملكته. كان يخبىء الذهب في خزائنه، وينتزع الذهبَ من رعاياه، فارضاً الضرائب بصدد كلّ شيء، طالباً كذا على القرية والنفس والنقل والأحذية وماسوى ذلك. كان يملك كل مايشتهيه، وكانت تُحملُ إليه الأشياءُ جميعاً، وكان كلُّ واحد يعطيه عمله في مقابل المال الذي يوزّعه: لأن الجميع كانوا محتاجين إلى المال.

ولم يكن إيفان «الغبي» بائساً أيضاً، فلم يكد حموه يُدفن حتى خلع بزّة القيصر وأعطاها امرأته طالباً إليها أن تخبئها في صندوق. ثم عاد إلى ارتداء قميص القنب، وسراويله، وحذاء الفلاح، واستأنف العمل. قال:

- لقد ضجرتُ. وبدأت أسمنُ، وذهبت شهيتي إلى الطعام، وصرتُ لاأنام.

فدعا إلى جواره أباه وأمه وأخته الخرساء وعاد إلى عمله. قيل له:

- لكنك أنت القيصر.

أجاب:

- وماذا يضيرني من ذلك؟ ألا يحتاج القيصر إلى العمل كي يكسب قوته. جاءه وزيره وقال:

- لم يبق لدينا مال لندفع المرتّبات.

قال ايفان:

- إذا لم يبق لدينا فلا تدفعْ.

- لكنهم سينصرفون جميعاً.

- فليكنْ، لينصرفوا. سيكون لديهم وقتٌ أوسع ليعملوا. ها إن الزبل يتكدّس من غير فائدة، فلينقلوه.

جاء إليه رعاياه يطلبون أن يقضي بينهم بالعدل.

قال أحدُ المشتكين:

- سرق جاري مالي.

قال ايفان:

- لاشك أنه فعل ذلك لأنه محتاجٌ إليه.

وعلم الجمهور حينئذ أن ايفان غبيّ.

قالت له امرأته:

- أتعلم مايقولون؟ يقولون إنك غبي.

قال ايفان:

- فليكنْ!

أخذت امرأة ايفان تفكّر؛ كانت هي أيضاً غبيّةً. قالت:

- حسناً! ليس لي الحق في معاكسة زوجي. المرأة على دين زوجها.

وإذ خلعتْ لباس القيصرة الذي وضعته في صندوق، ذهبت إلى الخرساء ورجتها أن تعلّمها العمل. وعندما أحسنت العمل ساعدت زوجها.

هجر البلادَ جميعُ العقلاء ولم يبق في المملكة سوى الأغبياء. لم يكن لدى أحدٍ مالٌ، وكانوا يعيشون جميعاً من عملهم، يأكلون ويُطعمون الآخرين.

- ١٠ -

بيد أن الشيطان العجوز انتظر طويلاً شياطينه الصغار؛ كان حريصاً أن يعلم كيف تصرّفوا ليهلكوا الإخوة الثلاثة لكنه تعب أخيراً من عدم تلقي أخبارهم فأزمع على السفر ليستعلم بشخصه عما جرى.

ويصل، ويبحث في كل مكان، فلايجد سوى ثلاثة ثقوب، ويفكّر: «ذلك لأنهم ربما هُزموا. سأعمل أنا بنفسي».

مضى يبحث عن الإخوة الثلاثة، ومرّ بمنازلهم القديمة التي سافروا منها وانتهى بأن عثر عليهم قياصرةً لثلاث ممالك.

أحسّ الشيطان العجوز بالذلّ من جراء ذلك. وقال في نفسه مرةً أخرى:

- سأعمل أنا بنفسي.

قرر أن يقصد القيصر سيميون أولاً. تحوّل إلى جنرال ومضى الى لقائه. قال له:

- علمتُ أنك قائدٌ عظيم. أنا نفسي خبيرٌ بشؤون الحرب. سأخدمكَ إن شئتَ.

أخضعه القيصر سيميون للاستجواب؛ ولما اكتشف قدراته، قبل عرضه الخدمةَ لديه.

أخذ الجنرال الجديد يعلّم القيصر كيف يُنظّم الجيش. قال:

- الجوهري أن يكون لديك أكبر قدرٍ ممكن من الجنود؛ وبغير ذلك سيكون في مملكتك فضلةٌ من الناس الذين لا فائدة منهم. جنِّد جميع الشباب بالجملة، وسيكون لك جيش أكبر بخمس مرات. وبعد ذلك ستكون بحاجة إلى البنادق والمدافع من النوع الجديد. وسأصنع لك منها ماتشاء: بنادق ترمي مئة طلقة دفعة واحدة، مثل مطر من الحمص، ومدافع قادرة على أن تحرق، من بعيد، الرجال والخيل والأسوار.

امتثل القيصر سيميون لنصائح الجنرال الجديد وجنّد جميعَ الشباب وبنى مصانع السلاح لتصنع البنادق والمدافع من النمط الجديد. ثم ذهب يحارب القيصر المجاور. وعندما التقى الجيشان أمر سيميون بإطلاق رصاص بنادقه وحرائق مدافعه وكفاه تفريغٌ واحدٌ لشلّ نصف خصومه وإحراقهم.

ارتعب القيصر المجاور وخضع وتنازل عن مملكته لسيميون الذي استخفّه الفرحُ. قال:

- سأشنّ الآن حرباً على القيصر الهندي.

لكن القيصر الهندي سمع عن سيميون؛ وتبنى اختراعاته وعثر على خيرٍ منها. فلم يجند الشباب وحدهم بل جند فتيات مملكته أيضاً، وجمع بهذه الطريقة جنداً أكثر عدداً من جند سيميون. لقد تزوّد بالبنادق نفسها والمدافع نفسها، وتخيّل فضلاً عن ذلك، وسيلةً يطير بها في الهواء ويرمي من الأعلى قذائفه المتفجرة.

هذا العدو هو الذي كان القيصر سيميون سيحاربه، واثقاً من أنه سينتصر عليه بالسهولة نفسها التي انتصر بها على الآخر.

لكن المنجل يتثلّم لفرط الاستعمال. فلم يترك القيصر الهندي لسيميون وقتاً يقترب فيه ويصبح على المدى المناسب، بل إنه أمر فتياته أن يطرن فوق الجيش العدو وأن يُمطرنه بالقذائف المتفجرة. أطاعت الفتيات الأمر، وأبادت أكثرهم القنابلُ المتفجرة التي رمتها الفتيات من أعالي الجو، فهرب جنودُ سيميون وتركوه وحده في ساحة القتال. ووضع القيصرُ الهندي يده على مملكة سيميون الذي تاه على وجهه.

وبعد أن تخلّص رئيس الشياطين، على هذا النحو، من سيميون، مضى ليلقى أخاه تاراس. تحوّل إلى تاجر، وأقام في مملكته، وتعاطى التجارة. وأخذ يدفع سعر وافراً بكل شيء، حتى اكتسح جمهورُ الناس منزله ليكسبوا مالاً، وكسبوا الكثير، حتى إن جميع الضرائب المتأخرة سُدِّدت، وأن جباية الضرائب منذئذ صارت منتظمةً.

سُرَّ القيصر تاراس بذلك. وفكّر:

- ينبغي أن أحمد لهذا التاجر عمله. فبفضله تزايدت خزينتي، سأعيش برفاهية أكبر.

وهاهوذا يُسلم نفسه لمشاريع جديدة. صمم أن يبتني قصراً أجمل من قصره الأول، وأذاع أن الناس يمكن أن يأتوه بالخشب والحجارة، وأنه سيوفّر عملاً للجميع، معطياً كلَّ شيء سعراً مجزياً. حسبَ أن ماله سيجذب الناس، وأن الناس سيهُرعون إليه جماعاتٍ ليحملوا إليه عملهم كالسابق. لكن الناس حملوا خشبهم وجميع أحجارهمٍ إلى التاجر وحده، وإلى التاجر إنما توافد الناس.

ضاعف القيصرُ أسعاره، فجعلها التاجر ثلاثة أضعاف. ذلك أن تاراس مهما يكن غناه فقد كان التاجر أغنى، وكانت الغلبة له. وتعذّر على تاراس بناءُ القصر.

أراد «تاراس» أيضاً أن ينشىء حديقة. وعندما جاء الخريف أعلن على الملأ أن الناس يستطيعون أن يأتوا ويطلبوا عملاً: فلم يأت أحد. لقد احتكر التاجرُ جميع العمال لحفر بركة. وعندما جاء الشتاء، اشتهى القيصر فروة سمّور سيبيريا. كلّف أحد خدمه أن يذهب ليشتري فروةً. لكن الخادم رجع صفر اليدين. وقال القيصر:

لم يبق من فروٍ في أي مكان. فجميع جلود السمور أُرسلت إلى التاجر الذي دفع أسعاراً أعظم؛ وعمل منها بساطاً.

احتاج تاراس إلى الجياد، فأرسل من يشتريها. لكن الذين أُرسلوا عادوا كما ذهبوا.

– جميع الخيول الجيدة يشغلها التاجر لنقل المياه كي يملأ مستنقعه.

وهكذا تعطلت جميعُ مشاريع القيصر. كان الناس يفعلون كل شيء للتاجر ولاشيء للقيصر. واكتفوا بأن جاؤوه بالمال من التاجر لتسديد الضرائب.

وكان القيصر غنياً بحيث ارتبك بماله؛ لكن الحياة أصبحت صعبة، فعلّق جميع مشاريعه، واقتصر على أن يجد مايعيش به، بيد أن ذلك لم يكن ميسراً أيضاً. لقد ارتبك بكل شيء: بخدمه وطهاته وحوذييّه، إذ تركوا خدمته إلى خدمة التاجر؛ حتى إنه كان يشقّ عليه أن يحصل على مايقتات به. كان يُرسل من يأتيه بالمؤن من السوق فلا يجد شيئاً؛ لأن التاجر رفع من السوق كلّ شيء. ولم يكن يُحمَل إلى القيصر سوى مال الضرائب.

استولى عليه الغضب في نهاية الأمر، وطرد التاجر من مملكته. لكن التاجر الذي استقر قرب الحدود استمر في تجارته. وبفضل ماله، استخلص كلَّ شيء ولم يبقَ شيءٌ للقيصر.

أخذت أمورُه تزداد سوءاً وكانت تمر أيام كاملة دون أن يضع شيئاً في فمه. وذات يوم، شاع نبأٌ مفاده أن التاجر يتبجح بأنه سيشتري القيصر بذاته. خاف تاراس، ولم يكن يعلم ماذا سيحل به.

حينئذ جاء سيميون المحارب ليلقى أخاه تاراس. قال له:

– أعني. لقد خلعني عن عرشي القيصرُ الهندي.

فأجاب تاراس:

– وأنا نفسي لاأجد ماآكله في كل يوم.

وإذ تخلص رئيسُ الشياطين من الأخوين، يمّم شطر ايفان. تحوّل إلى جنرال، ومَثَلَ أمام «الغبي»، ودعاه إلى تكوين جيش، قائلاً له:

- لايليق بقيصر أن يستغني عن الجيش. واسترحْ من عناء تنظيم جيش لك من رعاياك.

وافق ايفان. وقال:

- فليكنْ! باشرْ عملك. علّمهمَ كيف يغنون أغاني جميلة. فأنا أحب ذلك.

حينئذ طاف رئيس الشياطين بجميع مقاطعات المملكة، داعياً فيها المتطوعين إليه، معلناً أنه يقبل الجميع، وأنه سيوزع على الجميع كيلة ماء الحياة وقبعة حمراء.

أضحك ذلك الأغبياءَ. فقالوا:

- ماء الحياة موفورٌ ولدينا منه مانشاء. ونحن نصنعه بأنفسنا. أما القبعات فإن نساءنا يصنعن لنا قبعات من جميع الألوان وحتى المبرقشة.

ولم يتطوع أحدٌ منهم.

عاد رئيس الشياطين إلى ايفان:

- إن أغبياءك يرفضون التطوع. وينبغي تجنيدهم بالقوة.

قال ايفان:

- فليكنْ! جنّدْهم بالقوة.

حينئذ أعلن رئيس الشياطين أن على جميع الأغبياء أن يتطوّعوا كجنود وأن كلَّ رفض سيُعاقبُ بالموت.

ذهب الأغبياء للقاء الجنرال.

- أنت تقول أن جميع الذين سيرفضون منا التطوّع سيُعاقبون بالموت. لكنك لم تقل لنا ماذا سيحلّ بنا إذا صرنا جنوداً. يُقال أن الجنود يُقتلون. هل هذا صحيح؟

أجاب:

- نعم، هذا واضح.

ثبّتهم هذا الجوابُ في رفضهم. قالوا:

- لانريد أن نتطوّع. وإذا كنا سنُقتَلُ فلنُقْتَل في بيوتنا.

صاح رئيسُ الشياطين:

- أغبياء، طائفة من الأغبياء! صحيح أن الجنود يتعرضون للهلاك. لكنهم يستطيعون أيضاً أن يتفادوا الموت؛ وإذا ماعصيتم الأمر فسوف تُعدمون على يدي ايفان.

حملهم ذلك على التفكير. وذهبوا إلى ايفان يشكون له. قالوا له:

- لديك جنرال يحتم أن يجندنا جميعاً. ويقول «إن تطوّعتم فقد تنجون من الموت، أما إن رفضتم فما من شك أن القيصر سيُعدمكم جميعاً.

سأل ايفان وهو ينفجر ضاحكاً:

- حقاً؟ لكن كيف أفعل أنا وحدي لأقتلكم جميعاً؟ كنتُ سأخبركم كيف لو لم أكن غبياً؛ لكنني عاجزٌ عن أن أفهم شيئاً من ذلك، أنا.

قالوا:

- إذن لن نذهب.

أجاب:

- فليكنْ! لاتذهبوا.

عاد الأغبياء ليقابلوا الجنرال وليُطلعوه على رفضهم.

يئس رئيس الشياطين من النجاح، فغادر مملكة ايفان واتجه إلى قيصر «تاراخان»[1]، فنال حظوته، وقال له:

- هيا نحارب القيصر ايفان. إنه فقير بالمال، لكنه غني بالحنطة والماشية، والخيرات الأخرى.

استمع إليه قيصر «تاراخان». جمع جيشاً كبيراً مع البنادق والمدافع وسار إلى الحدود لاجتياح بلاد ايفان.

أُعلِمَ ايفان بذلك:

---

(١) قيصر تاراخان: ملك مقاطعة خرافية ولعلها تذكّر بولاية روسية على البحر الأسود في القرن الحادي عشر.

- إن قيصر تاراخان يشنّ الحرب عليك .

قال ايفان :

- فليكنْ! وليسر إلى الحرب .

اجتاز قيصر تاراخان الحدود بكامل جنده، وقذف بطلائعه بحثاً عن جيش ايفان، ففتشت ونقبت في كل مكان، لكنها لم تعثر على جيش. لعل جيش ايفان سينبعث من الأفق؟ لم يقعوا على أي نبأ. يستحيل أن يقاتلوا.

حينئذ أمر قيصر تاراخان باحتلال القرى. خرج الأغبياءُ رجالاً ونساءً، إلى الشارع، فدهُشوا لدى مرأى الجنود. نهب الجنودُ حنطة الأغبياء وماشيتهم؛ وترك الأغبياء لهم كلَّ شيء دون أن يفكروا في أدنى مقاومة.

اجتاح الجنودُ قريةً ثانية وثالثة. وحدثت الحوادثُ نفسها. ساروا يوماً ويومين، فحدث الشيء نفسه في كل مكان. لامقاومة بتاتاً من جانب السكان الذين كانوا يعطونهم كلَّ شيء بل ويقاسمونهم معاشهم، قائلين لهم:

- إذا لم تكونوا سعداء في بلادكم، أيها الأصدقاء، فعيشوا عندنا إلى الأبد.

سار الجنود ماوسعهم السيرُ فلم يصادفوا جيشاً، ولم يعثروا على شيء سوى الناس الذين يعيشون من عملهم، ويأبون أن يدافعوا عن أنفسهم، ويريدون أن يستبقوا الجنود.

تعب الجنود في النهاية وذهبوا إلى قيصر تاراخان ليقولوا له:

- يستحيل علينا أن نقاتل. خذْنا إلى مكان آخر. ماكنا لنشكو لو كنا نحارب حقاً. لكننا هنا كمن يقطع عصيدةً. يستحيل علينا أن نحارب في هذه البلاد.

غضب قيصر تاراخان. أمر جنوده بعبور البلاد في جميع الاتجاهات.

- خرّبوا القرى، دمّروا المنازل، أحرقوا القمح، اقتلوا الماشية. . . وإذا لم تفعلوا ماأقوله لكم فسوف أُعدمكم جميعاً!

خاف الجنودُ، فأطاعوا وجابوا أرجاءَ المملكة، مهدّمين المنازل، محرقين الزرع، قاتلين الماشية.

لكن الأغبياء لم يزدهم ذلك ميلاً إلى الدفاع عن أنفسهم. اكتفوا بالبكاء، بكى الجميعُ، شيوخاً ونساءً وأطفالاً. كانوا يقولون:

- لماذا تعاملوننا هكذا؟ لماذا تضيّعون كل هذه الخيرات؟ إذا كنتم تحتاجون إليها فلماذا لاتأخذونها وتستعملونها.

هذا النمط من الحرب لم يرق للجنود. فلم يعد يحدوهم شيء إلى الذهاب أبعد مما وصلوا إليه. فرموا سلاحهم، ولم يبق من جيش تاراخان أحدٌ.

- ١٢ -

عندما رأى رئيسُ الشياطين أن الجنود لم يفيدوه شيئاً توارى عن الأنظار.

مالبث أن عاد إلى الظهور، متحولاً إلى سيّدٍ، وجاء إلى مملكة ايفان كي يقيم فيها، وليتغلب عليه بواسطة المال، كما تغلب على «تاراس» البطين. قال للناس:

- جئتُ لأغدق عليكم الهبات ولأعلمكم أجمل الأشياء في هذا العالم سأبني بيتاً عندكم.

أجابوه:

- فليكنْ! ابق معنا.

في صباح اليوم التالي، قصد الساحةَ العامةَ السيدُ الحسن الهندام، وقد تزوّد بكيس كبير من الذهب وبورقة. قال:

- أنتم تعيشون كما تعيش الحيوانات. سأعلمكم كيف تعيشون. ابنوا لي بيتاً حسب هذا المخطط. اشتغلوا بإدارتي، وسأعطيكم المال ذهباً. وبسط ذهبه أمامهم.

دُهش الأغبياءُ. هذه أول مرة يرون فيها الذهب؛ وكانت منتوجات عملهم تصلح لمبادلاتهم فقط. تعجبوا وقالوا:

- جميلةٌ هذه الأشياء!

ووافقوا على أن يحملوا للسيد الحسن الهندام عملهم مقابل هذه الأشياء الذهبية. وأخذ رئيس الشياطين يبذل الذهب بملء يديه كما فعل عند تاراس، وحصل بالمقابل على جميع المنتوجات والأعمال. وكان سعيداً بذلك وفكر:

«إن مشروعي يسير في الطريق الصحيحة. وماعليّ إلا أن أُفقر الغبيّ كما أفقرتُ تاراس، وأن أشتريه هو ذاته».

لكن مالبث الأغبياء أن كثرت بين أيديهم القطعُ الذهبية كثرةً لم يعرفوا ماذا يصنعون بها: كانوا يعطونها نساءهم ليصنعن منها عقوداً، والفتيات ليزيّنّ بها جدائلهن، والأطفالَ ليلعبوا بها في الشارع. ورأوا أن ماحصلوا عليه منها كاف، ورفضوا أن يقبلوا قطعاً أخرى.

بيد أن السّيد الحسن الهندام لم يبن غير نصف بيته، ولم تكمل مؤونته من القمح والماشية. فأعلن أن من أراد عملاً وجد عملاً عنده، وأنه سيشتري القمح كله، والماشية التي يجلبونها كلها، واعداً بكومة من القطع الذهبية في مقابل كل عمل، وكل شيء.

لكن لم يأته أحدٌ للعمل، ولم يحمل إليه أحدٌ شيئاً، أيّاً كان الشيءُ. لم يكد يأتيه، من وقت إلى آخر سوى صبيٌّ صغير أو طفلة جاءا يبادلان ببيضة قطعة ذهبية. ولم يبق لدى السيد الحسن الهندام مايضعه في فمه. فتملكه الجوعُ وخرج إلى القرية ليشتري مايأكله.

دخل فناءً وعرضَ قطعةً ذهبية مقابل دجاجة؛ لكن المرأة رفضت القطعة قائلة:

- مايزال عندي بقيةٌ من هذه الأشياء.

وقرع باباً آخر، واقترح على صاحبة المنزل أن يشتري منها سمكة مقابل قطعة ذهبية. أجابته:

- لست بحاجة إلى ذهبك، ياصاحبي ليس لديّ أولاد، ولاأحد ليلعب بهذه الأشياء الذهبية. ولديّ منها ثلاثة قبلتها بسبب الفضول الخالص.

قصد بعد ذلك فلاحاً وأراد أن يشتري منه رغيفاً. لكن الفلاح رفض أيضاً ذهبه، قائلاً له:

- لاحاجة بي إلى الذهب. لكنك إن كنتَ تطلب رغيفاً لوجه الله، فانتظر لحظة، وستقطع لك امرأتي قطعة منه...

بصق الشيطان وفرّ ركضاً. كان يحب لو تلقّى طعنة سكين على أن يسمعه وهو يعرض أيّ شيء لوجه الله، على أن يسمع مجرّد اسم الله.

وهكذا طاف القرية ولم يجد رغيفاً. رفض الجميع أن يبادلوه شيئاً بذهبه.

- إن لم يكن معك شيءٌ آخر تعرضه، فاعملْ، أو خذْ شيئاً لوجه الله.

بيد أنه لم يكن يملك شيئاً يعرضه غير الذهب؛ أما العمل فلم يكن يريده؛ وأما أن يأخذ لوجه الله فذلك مالم يكن يستطيعه.

استبد الغضبُ برئيس الشياطين، وقال لهم:

- ماذا تريدون أكثر من ذلك، إذ أني أعرضُ عليكم الذهب؟ وإذا امتلكتم الذهب أمكنكم أن تحصلوا على كل ماتحتاجون إليه، وتشغّلون مَنْ تشاؤون.

لكن الأغبياء رفضوا الاستماع إليه. وقالوا:

- مانفعُ الذهب؟ لسنا مديونين لأحد، ونحن لاندفع ضرائب. احتفظ بمالك؛ فلسنا بحاجة إليه.

اضطُرّ رئيسُ الشياطين أن ينام خالي البطن.

سمع ايفان «الغبيُّ» الناسَ يتحدثون عن هذه القضية. فقد جاؤوا يسألونه:

- ما العمل؟ جاءنا سيّدٌ حسن الهندام، وهو يبغي أن يأكل جيداً. ويشرب جيداً، ويلبس جيداً؛ لكنه يرفض أن يعمل وأن يأخذ شيئاً لوجه الله. وهو لايحسن شيئاً سوى أن يعرض على كل واحد قطعاً ذهبية. وطوال الوقت الذي كانت فيه قطعهُ الذهبية تسلّينا كان يحصل في مقابلها على كل مايريد. أما الآن فلم يعد يعطيه أحدٌ شيئاً. فكيف نمنعه من الموت جوعاً. أنتركه يموت جوعاً.

قال لهم ايفان بعد أن استمع إليهم بانتباه:

- حسناً! فليُعْطَ مايأكله. ليطلب خبزه من بيت إلى بيت، كالراعي.

اضطُرَّ الشيطان أن يذهب من فناء إلى فناء. وعندما بلغ منزل ايفان، رجا الخرساءَ التي كانت مشغولة بطبخ غداء أخيها، أن تُطعمه. وطالما خدعها الكسالى الذين يأتونها مبكرين يطلبون الطعام، دون أن يكونوا قد عملوا، فيلتهمون برغلها كلها؛ وكانت تعرفهم من أيديهم، فتجلس إلى المائدة من كان مقرّح الأصابع، ولا تعطي الآخرين سوى فضلات الطعام.

وبما أن الشيطان العجوز سلك بمكر الطريقةَ إلى المائدة، أمسكت الخرساءُ بيده لتفحصه: كانت هذه اليد بيضاء، ليس فيها أثرٌ للقروح، وكانت تنتهي بمخالب طويلة. أطلقت خواراً وألقتْ بالشيطان بعيداً عن المائدة.

قالت له امرأةُ ايفان:

- لاتغضبْ، أيها السيد الحسن الهندام. فكل مَنْ ليس في أيديهم قروح تُبعدهم عن المائدة أختُ زوجي. فاصبر؛ وعندما ينتهي الناسُ من غدائهم ستُعطى الفضلات.

احمر الشيطان خجلاً: أيشارك الخنازير طعامها، هو، في منزل القيصر!

- إن من الغباءِ أن يُؤْمَر جميعُ الناس، في مملكتك، أن يعملوا بأيديهم. حماقتُك وحدَها أمكنها أن توحي إليك بهذا القانون. ألا يعمل الناسُ إلا بأيديهم؟ وبأي شيء يشتغل، برأيكَ، الأذكياء.

أجاب ايفان:

- وهل في وسعنا أن نعلم، نحن الأغبياء. نحن نشتغل بأيدينا وصُلْبنا.

- ذلك أنكم أغبياء... لكني سأعلمكم أنا، أن تعملوا برؤوسكم، وستعترفون أنتم أنفسكم إلى أي حدّ ذلك العمل أجدر بالتفضيل.

دهش ايفان؛ وقال:

- حقاً؟ الحقّ مع الذين ينعتوننا بأننا أغبياء!

أضاف رئيس الشياطين:

- لكن العمل بالرأس أشدّ عسراً. أنتم ترفضون أن تعطوني ماآكله وحجّتكم أن ليس في يدي خشونة، وتجهلون أن العمل بالرأس أصعب بمئة مرة. إلى الحد الذي قد ينفجر فيه الرأس أحياناً.

تضاعفت دهشةُ ايفان. وقال:

- ولمَ تكدّون أنفسكم إلى هذا الحدّ، ياصاحبي؟ ليس شيئاً حسناً أن ينفجر الرأسُ. أليس من الأفضل أن يشتغل المرءُ دون مشقّة بيديه وصُلبه مثلنا.

أجابه الشيطان:

- إنما أكدُّ نفسي بسبب إشفاقي بالذات عليكم، أيها الأغبياء. ولولاي لظللتم أغبياء. لكني سأعلّمكم كيف تعملون برؤوسكم، مثلي.

قال ايفان وهو مدهوش:

- علّمْنا ذلك. فإننا ستُتعب أيدينا أيضاً مع الزمن. وسيريحنا أن نعمل برؤوسنا من وقت إلى آخر.

وعد الشيطان بتعليم الأغبياء، وأذاع ايفان في مملكته كلها أنه قد قدم سيّدٌ حسن الهندام سيعلّم كلَّ واحد طريقة العمل بالرأس؛ وأن الرأس يقوم بعمل أكثر من اليدين، وأن على الجميع أن يأتوا ليتعلموا.

كان في مملكة ايفان برج عظيم الارتفاع ينتهي بمصطبة يوصل إليها

بسلم مسند إلي الجدار. وإلى هذا الموضع اقتاد ايفان السيد لحسن الهندام: فبهذه الطريقة يستطيع الجميع أن يروا.

استقرّ السيدُ الحسن الهندام، وأخذ يخطب في الناس. كان الأغبياء ينظرون إليه معتقدين أنه سيريهم بالفعل كيف يعملون بالرأس، دون مساعدة اليدين؛ لكن رئيس الشياطين اقتصر على تعليمهم بالكلام السبيلَ إلى العيش دون عمل.

فلم يفهم الأغبياء شيئاً مما قاله. تعبوا من النظر وعادوا إلى أشغالهم.

قضى رئيسُ الشياطين نهاره كله على البرج، ثم نهار اليوم التالي، دون أن يكفَّ عن الكلام. فتملّكه الجوعُ، لأن الأغبياء نسوا أن يُصعدوا إليه مايأكله. وفكروا: «إن سيّداً يُحسن العملَ برأسه أكثر من يديه لن يُربكه أن يصنع لنفسه خبزاً».

جاء اليومُ الثالث، والشيطانُ العجوز مايزال هنا، يخطب أبداً من أعلى برجه. ويقترب الأغبياء واحداً بعد واحد، يرفعون أبصارهم، ينظرون ويبتعدون.

ومن وقتٍ إلى آخر كان ايفان يسألهم:

– ألم يشتغل هذا السيد برأسه بعد؟

فيجيبونه:

– لا، لم يشتغل بعد! فهو يثرثر.

مرّ اليوم، وأخذ الشيطان يفقد قواه. رآه مرةً أحدُ الأغبياء يترنح على ساقيه ويصدم العمود برأسه. فأخطر امرأة ايفان التي جرت لتخبر زوجها المشغول في حقله. صاحت به:

– تعال بسرعة وانظر. يبدو أن السيد بدأ يعمل برأسه.

أدهش هذا النبأُ ايفان، فقال وهو يقترب:

– حقاً ماتقولين؟

خارت قوى رئيس الشياطين. شوهد وهو يترنّح على ساقيه ويصدم العمود برأسه.

وبينما كان ايفان يصل ترنّح الشيطان وسقط على السلّم، ضارباً بجبهته جميع عوارضه، وكأن رأسه كان يعدّها تباعاً.

قال ايفان:

- أوه! أوه! لم يكن مخطئاً السيدُ الحسن الهندام: فالرأس يفرقع أحياناً! وأنا أفضل التقرّح. فطريقة العمل هذه صالحة لمن شاء أن يُصاب بندوب في الرأس.

سقط رئيسُ الشياطين وأغرق رأسه في التراب. ولما تقدّم ايفان، مدفوعاً بفضوله لأن يرى إن كان قد قام بعمل كبير، وانشقّت الأرض وابتلعت الشيطان العجوز الذي لم يترك وراءه سوى ثقب.

حك ايفان رأسه، وقال:

- أوه! ياللحيوان الحقير! وهذا هو أيضاً! لعله أبو الآخرين؛ أرأيت ماأكبره!

- ١٣ -

ظل ايفان يعيش. هُرِع الناسُ الى مملكته جماعات. ووجد الأخوان أيضاً مأوىً عنده، وهو الذي أعالهم. وكان يقول لمن يجيئه طالباً مايعيش به:

- فليكنْ! . عيشوا. لاشيء ينقصنا هنا. لكن لهذه المملكة قانوناً واحداً: هل في يديك قروح؟ اجلسْ إلى المائدة. . . ليس في يديك قروح؟ كلْ الفضلات.

العامـــل اميليـــان والطبـــل الفـــارغ

كان اميليان مجرّد عامل .

كان يجتاز ، ذات يوم ، حقلاً ليذهب إلى عمله ، فوثب ضفدعٌ أمامه . أوشك أن يدوسه في مشيه ، لكنه تخطّاه ، وبعفويّةٍ سمع وراءه مَنْ يناديه . التفت اميليان فرأى فتاةً تقول له :

- اميليان ، لماذا لاتتزوّج؟

- وكيف أتزوّج؟ يافتاتي العزيزة . هذا كل ماأملك ؛ ليس عندي شيء ؛ فمن يقبل بي؟

قالت له الفتاة حينئذ :

- تزوجني أنا .

كانت الفتاةُ تعجب اميليان كثيراً .

قال بفرح :

- أنا! لكنْ أين نعيش؟

قالت الفتاة :

- عجباً! لايستحقّ ذلك التفكير ؛ ليزد العملُ فقط ، ولينقصْ النوم ، وسنجد مانأكله ومانلبسه أينما كنّا .

قال :

- حسناً ، حسناً ، فلنتزوّج . وأين نذهب؟

- لنذهب إلى المدينة .

سافر اميليان الى المدينة مع الفتاة اصطحبها الى بيت صغير في أطراف المدينة ، وتزوّجا ، وعاشا معاً .

ذات يوم ، ذهب القيصر يتنزّه خارج المدينة ، فمرّ أمام منزل اميليان ، وخرجتْ زوجة اميليان لترى القيصر .

شاهدها القيصر ودهش : «أين وُلد هذا الجمال» .

أوقف القيصر العربة ونادى زوجة اميليان وسألها :
– مَنْ أنتِ؟
أجابت :
– أنا زوجة اميليان .
– لماذا تزوجتِ، أنت الفائقة الجمال، فلاحاً؟ كان ينبغي أن تكوني قيصرةً . .
قالت :
– أشكرك على كلماتك اللطيفة، لكني جد مرتاحة مع فلاّحي .
حدثّها القيصر قليلاً ومضى بعيداً .
عاد إلى القصر . لم تخرج زوجةُ اميليان من رأسه . لم يستطع النومَ طوال الليل، وأخذ يفكّر في الوسيلة التي ينال بها امرأةَ اميليان، فلم يعثر على وسيلة . نادى خدمه وأمرهم أن يتخيلوا له وسيلة . قال الخدمُ الملكيون للقيصر :
– شغّلْ اميليان في قصرك عاملاً، سنقتله بالعمل، وستغدو زوجتهُ أرملةً، وحينئذ تستطيع أن تأخذها .
عمل القيصرُ ذلك . أمر بإحضار اميليان ليأتي ويعمل في القصر ويعيش فيه مع امرأته . وصل المبعوثون إلى منزل اميليان وأبلغوه أمر القيصر . حينئذ قالت المرأةُ لزوجها :
– حسناً! اذهبْ! اشتغلْ في النهار، وعُدْ في الليل إليّ .
ذهب اميليان . جاء الى القصر . سأله أحد ضباط القيصر :
– لمَ جئتَ وحدكَ، دون امرأتك؟
– ولمَ آتي بها؟ إن لها بيتها .
في بلاط القيصر، أُعطي اميليان كثيراً من العمل حتى إنه حين بدأ به لم يكن يأمل في الانتهاء منه .
بيد أنه أنهى كل شيء قبل المساء . رأى الخادمُ أنه انتهى، حينئذ أعطاه

في اليوم التالي عملاً أكبر بأربع مرات. وعندما عاد اميليان إلى بيته، كان كل شيء منظفاً، مرتباً، والمدفأة ساخنة والطعام مُعداً؛ كانت المرأة تخيط أمام الطاولة منتظرةً زوجها. لاقته، وسكبت له حساءه، وأطعمته جيداً، وسقته شراباً، وأخذت تسأله عن عمله. قال:

– أوه! إنه سيءٌ. فهم يعطونني عملاً أكثر مما أستطيع، سيقتلونني بالعمل.

قالت:

– لاتفكر في العمل، ولاتنظر خلفك وأمامك، وإذا كنت قد صنعت الكثير أو إذا بقي عليك الكثير فاشتغل فقط، وكلُّ شيء سيكون جاهزاً في حينه.

ذهب اميليان إلى النوم. وفي الصباح انطلق من جديد إلى العمل. عمل دون أن يرفع بصره ولو مرةً واحدة. كان كلُّ شيء منتهياً في المساء، وعاد إلى البيت لينام. زيدت مهمةُ اميليان أكثر فأكثر، لكن كل شيء كان يتم في ميعاده. وكان اميليان يعود كلّ مساء إلى البيت لينام.

مضى اسبوعٌ؛ وعندما رأى خدمُ القيصر أنهم لم يستطيعوا أن يتغلبوا على الفلاح بالعمل المضني، قرروا أن يعطوه عملاً أدق، لكن هذه الوسيلة لم تنجح أكثر من غيرها. وسواء أُعطي عمل النجار، أو عمل المسقّف، أو غيرهما فقد كان يُتمّم في الوقت المحدّد كل مايُعهد به إليه، ويذهب كلّ مساء لينام في بيته.

مضى اسبوعٌ أيضاً. دعا القيصرُ خدمه وقال:

– أأطعمكم وأنتم لاتفعلون شيئاً؟ مضى اسبوعان ومامن نتيجة! أردتم أن تميتوه بالعمل. ومن نافذتي أراه كل يوم يعود إلى المنزل وهو يغني. أتهزؤون بي؟

حاول خدمُ القيصر أن يبرّروا أنفسهم:

– عملنا كل ماهو بإمكاننا؛ عذبناه في البداية بعمل مضنٍ، لكن لم تكن لنا حيلةٌ به؛ إنه يقوم بعمله وكأنه يعمل بمكنسة، وهو لا يحس بالتعب. حينئذ أعطيناه عملاً دقيقاً، ظننّا أنه لا يملك المهارة الكافية. لكننا لم ننجح هذه المرّة أيضاً. من أين جاء ذلك؟ إنه يعرف كل شيء ويعمل كلّ شيء! لابدّ أنه هو أو امرأته يستخدمان سحراً ما. ضجرنا من ذلك. نريد الآن أن نكلّفه عملاً لا يستطيع القيام به. لقد تخيّلنا أن نأمره ببناء كاتدرائية في يوم واحد. استدعِ اميليان ومُرْه أن يبني كاتدرائية في يومٍ واحد، قبالة قصرك، فإن لم يبْنِها أمكننا قطع رأسه لعصيانه.

استدعى القيصرُ اميليان، وقال له:

– حسناً! هذا هو أمري: ابنِ لي كاتدرائية جديدة، في الساحة، قبالة القصر، ويجب أن يكون كل شيء جاهزاً غداً مساءً. إن بنيتها كافأتكَ، وإلاّ قطعتُ رأسك.

بعد كلمات القيصر هذه، عاد اميليان إلى بيته. وفكّر:

– آه! لقد اقتربت نهايتي الآن.

وصل البيت وقال لامرأته:

– آه! ياامرأة، استعدي للهرب، إلى أي مكان، وإلا هلكنا!

قالت:

– ايه! لمَ تخاف هذا الخوف الذي يحمل على الهرب؟

– كيف لا أخاف! أمرني القيصرُ أن أبني غداً، في النهار، كاتدرائية، وإذا لم أبنها هدّدني بقطع رأسي. لم يبقَ علينا إذن إلاّ أن نهرب مادام في الوقت متّسعٌ.

لم تكن امرأته من هذا الرأي. قالت:

– للقيصر جنودٌ كثُرٌ، وسيقبضون عليك أينما فررتَ؛ لا يمكننا الإفلاتُ منه، وينبغي أن نطيعه قدر المستطاع.

– لكن كيف أطيعه إذا كان ذلك يتجاوز قواي؟

– اذهبْ، ياصاحبي، لا تخفْ، كلْ عشاءك ونَمْ. وانهض غداً أبكر من عادتك، وسيُسوّى كلُّ شيء.

نام اميليان، وأيقظته امرأته في اليوم التالي. قالت:

- أسرع أكثر من عادتك، أنّه الكاتدرائية، خذْ هذا المسمار وهذه المطرقة؛ وهناك لم يبق عليك سوى عمل يوم.

سافر اميليان إلى المدينة، فشاهد في الواقع كاتدرائية جديدة وسط الساحة. ولم تكن منتهيةً تماماً. باشر اميليان عمله، وفي المساء كان كلُّ شيء جاهزاً.

ماإن استيقظ القيصر حتى نظر من نافذة قصره ورأى الكاتدرائية. كان اميليان يمشي في أعلاها ويغرز بعض المسامير.

لم يكن القيصر مسروراً من الكاتدرائية، كان منزعجاً من أنه لم يستطع أن يأمر بقطع رأس اميليان وأن يأخذ امرأته.

ومرةً أخرى استدعى القيصر ُخدمه وقال لهم:

- قام اميليان بهذا العمل، ولامبرّر لقطع رأسه. هذا العمل لم يكن شيئاً ذا بال بالنسبة إليه؛ يجب أن نتخيل شيئاً أصعب أيضاً. فكّروا؛ وإلا قتلتكم قبله.

تخيّل الخدمُ أن يؤمر اميليان بتمرير نهرٍ حول القصر، وعلى ضفافه مراكب.

استدعى القيصر اميليان وأمره أن ينهض بهذا العمل الجديد، قائلاً له:

- اميليان، إذا كنتَ قد استطعتَ أن تبني كاتدرائية في ليلة فأنتَ قادرٌ أيضاً على القيام بهذا العمل. ليكنْ كلُّ شيء جاهزاً في الغد، وإلاّ قطعتُ رأسك.

جاء اميليان امرأته أشدّ حزناً من عشية أمس. فقالت له:

- مالكَ؟ هل أمرك القيصرُ بشيء آخر؟

روى لها اميليان القضيّة، وأضاف:

- يجب أن نهرب.

أجابت امرأته:

- لاتقلق، كُلْ عشاءك واذهبْ للنوم؛ استيقظ أبكر من عادتك وسيُسوى كلُّ شيء.

ذهب اميليان لينام، ايقظته امرأتُه صباحاً، وقالت:

- اذهبْ إلى القصر، كلُّ شيء جاهز. لكن مايزال قرب المرفأ، قبالة القصر، أكمةٌ صغيرة، فخذ المعول وسوِّها.

سافر اميليان؛ وعندما وصل المدينة، رأى النهر حول القصر؛ وعلى أمواجه تطفو مراكب. اقترب اميليان من المرفأ قبالة القصر، فرأى الأكمة وأخذ يُزيلها.

استيقظ القيصر فرأى النهر والمراكب واميليان، يُسوّي بمعوله الأكمة. ارتعب القيصر ولم يُسَرَّ لا من النهر ولا من المراكب؛ حزن لأنه لم يتمكن من قطع رأس اميليان. يظن أنه مامن عمل لايستطيع إنجازه.

وماذا يتخيلون الآن؟

استدعى القيصر خدمه وأخذ يفكر معهم. قال:

- تخيّلوا عملاً ليس بوسع اميليان انجازه، لأنه عمل حتى الآن كلّ ماأمرناه به؛ ولاسبيل إلى أخذ امرأته.

فكّر رجالُ حاشيته، وبعد أن عثروا على فكرةٍ اجتمعوا عند القيصر واقترحوا عليه:

- يجب أن يُدعى اميليان وأن يُقال له: «اذهبْ إلى حيث لاتعلم واجلبْ مالاتعلم»، لكي لايُفلت منك بعد الآن. أينما يذهبْ تقلْ له إنه لم يكن حيث كان يجب أن يكون؛ ومهما يجلبْ لك تقلْ له إنه لم يجلبْ ماينبغي جلبُه، وحينئذ يمكننا قطع رأسه وأخذ امرأته.

رضي القيصر وقال:

- ماأحسن ماتخيّلتُم.

أمر القيصر بإحضار اميليان وقال له: «اذهبْ إلى حيث لاتعلم، واجلبْ مالاتعلم، وإذا لم تفعل اللازم قطعتُ رأسك».

وصل اميليان الى بيته وروى لامرأته ماقاله القيصر. فكرت المرأة وقالت:

- ايه! لقد نصحوا القيصر نصيحة حسنة؛ ويجب الآن أن نتصرف بحكمة. فكّرت وفكرت، ثم قالت لزوجها: يجب أن تذهب بعيداً، إلى جدتنا العجوز، جدّة الفلاح والجندي، وتطلب منها حمايتها. ستعطيك شيئاً تعود به رأساً الى القصر، وسأكون هناك؛ الآن لاأستطيع أن أتفادى أيديهم، سيأخذونني بالقوة، لكن ذلك لن يدوم طويلاً وإذا مانفذت ماتأمرك به الجدّة فلسوف تخلصني على الفور.

هيأت المرأةُ ثيابَ زوجها وأعطته كيساً صغيراً ومغزلاً. قالت:

- خذْ، سلمها هذا المغزل، وحينئذ ستعرف أنك زوجي.

دلّته المرأةُ على الطريق. انصرف اميليان، وخرج من المدينة. رأى جنوداً يتدربون، فنظر إليهم. عندما انتهى الجنود جلسوا ليستريحوا. دنا منهم اميليان وسألهم:

- هل تعرفون، ياإخوتي، أين يجب أن أذهب إلى هناك، إلى حيث لاأعلم وأن أجلب من هناك مالاأعلمه؟

عندما سمع الجنودُ ذلك دهشوا وقالوا:

- من الذي أرسلك هكذا؟

- القيصر.

- نحن أنفسنا نذهب إلى حيث لانعلم، ولايمكننا بلوغه، ونبحث عمّا لانعلمه ولانستطيع العثور عليه. فليس في مقدورنا إذن أن نساعدك.

بقي اميليان لحظة مع الجنود وذهب بعيداً.

سار وسار، فبلغ غابةً كان فيها كوخ خشبي صغير وفي الكوخ عجوزٌ، جدّة الفلاح والجندي. كانت تغزل وتبكي وتبلّل أصابعها لابلعاب فمها بل بدموع عينيها. صاحت العجوز وهي ترى اميليان:

- ماحاجتُك؟

أعطاها المغزلَ وقال لها إن امرأته أرسلته إليها. عاد إلى العجوز هدوءُها على الفور وأخذت تسأله. روى لها اميليان حياته كلها، كيف تزوّج، وكيف ذهب ليسكن المدينة، وكيف شغّله القيصرُ عاملاً، وكيف عمل في القصر، وكيف بنى الكاتدرائية، والنهر والمراكب، وكيف أمره القيصر الآن أن يذهب إلى هناك، إلى حيث لايعلم وأن يجلب من هناك مالايعلمه.

أصغت العجوز وكفّت عن البكاء وتمتمت، وقالت:

- بديهي، جاءت الساعةُ. حسناً! اجلسْ وكلْ.

أكل اميليان فقالت له العجوز:

- هاهي ذي كبّة غزل؛ ادفعها أمامك واتبعها حيثما تدحرجت. سوف يلزمك أن تذهب بعيداً، حتى البحر. فإذا وصلت البحر طالعتْكَ مدينةٌ كبيرة، فادخلها، واطلب الاذن بالمبيت، في آخر بيت منها، وهناك ستجد مطلوبَك؟

- وكيف أعرف المطلوب، ياجدّة؟

- عندما ترى شيئاً يُطاعُ خيراً مما يُطاع الأبُ والأم، فهو المطلوب؛ خُذْهُ واحمله الى القيصر. ستحمله إليه وسيقول لك: أنتَ لم تحمل المطلوب. حينئذ أَجبْ: «إن لم يكن هذا فيجب تحطيمه. اضربْ ذلك الشيء واحملْه بعد ذلك الى النهر واكسرْه وارمِهِ في الماء. وبعد ذلك ستلقى امرأتك وستجفّفُ دموعي.

ودّع اميليان الجدّة وسافر وهو يدفع الكبة.

دفع الكبة وأمعن في دفعها فقادته إلى البحر. قرب البحر مدينةٌ عظيمة؛ في آخر بيت يطلب اميليان الإذن بالمبيت فيُجاب طلبه، وينام، ويستيقظ مبكراً؛ سمع الأب يوقظ ابنه ليذهب الى قطع أشجار الغابة، فلا يُطيع الابنُ الذي يقول:

- مايزال الوقت مبكراً جداً، ومايزال لدي متسعٌ من الوقت.

سمعت الأم، من على المدفأة، هذه الكلمات، فقالت:

- اذهبْ، يابني، فأبوك عجوز، وهو لايستطيع أن يذهب بنفسه، اذهبْ. تذمّر الابن وعاد إلى النوم.

ماكاد ينام حتى سمع شيئاً يُقرع من ذاته في الشارع ويدوّي. وثب الابن، وارتدى ثيابه وجرى مسرعاً إلى الشارع؛ اندفع اميليان وراءه ليرى ماالذي يُحدث هذه الضوضاء التي يطيعها الابنُ أكثر مما يطيع أباه وأمه. خرج اميليان ورأى في الشارع رجلاً يحمل أمامه شيئاً مدوّراً يضربه بعصا. وهو الذي أحدث هذا القرع، وهو الذي أطاعه الابنُ. دنا اميليان وأخذ ينظر إلى هذا الشيء. رأى أن هذا الشيء اسطواني الشكل، مُغلقٌ من طرفيه بجلدٍ. فيسأل:

- ماسم هذا الشيء؟

قيل له:

- هذا طبلٌ.

- أهو فارغٌ؟

- نعم.

دُهش اميليان وطلب الطبل، فأبوا أن يعطوه إياه. لم يُلحّ اميليان، لكنه تبع حاملَ الطبل. مشى النهار كله، وعندما نام الطبّال، استولى اميليان على طبله وهرب به.

جرى وجرى وجرى فبلغ بيته. أمِلَ أن يجد امرأته في البيت، لكنها لم تكن هناك؛ لقد اقتيدت عشية أمس إلى القيصر.

قصد اميليان القصر وأعلن عن وصوله هو الذي:

« ذهب إلى هناك، إلى حيث لايعلم، وحمل من هناك مالايعلمه».

أُعلِمَ القيصر بذلك.

أمر القيصرُ أن يُبلَّغ اميليان أن يعود في اليوم التالي. طلب اميليان أن يُعلن عنه مرةً أخرى. قال:

- أنا جئتُ اليوم، وحملتُ ماأُمرتُ به؛ ليأتِ القيصرُ وإلاّ دخلتُ عنوةً.

خرج القيصر، وسأل:

- أين كنتَ؟

أجابه اميليان:

- كنت حيث لاأعلم أين.

- وماذا حملتَ؟

أراد اميليان أن يريه ماحمل لكن القيصر قال دون أن ينظر:

- ليس هذا هو المطلوب:

قال اميليان:

- إن لم يكن هذا هو المطلوب فيجب أن نكسره وأن نرميه للشيطان.

خرج اميليان من القصر حاملاً الطبل وأخذ يقرعه. وعلى الفور تجمّع حوله جيشُ القيصر كله؛ حظي بالتكريم وانتظروا أوامره.

صاح القيصر بجيشه من شرفة قصره ألا يقترب من اميليان؛ فلم يُصغ أحدٌ إليه وهُرعوا جميعاً نحو اميليان. عندما رأى القيصر ذلك أمر بأن تُقتاد زوجةُ اميليان إلى بيتها وأن يُطلب من اميليان إعادة الطبل إليه. قال اميليان:

- لاأستطيع، لقد أُمرت أن أحطّمه وأن أرمي حطامه في النهر.

دنا اميليان من النهر وهو يحمل الطبل، وتبعه الجنودُ جميعاً. وعند ضفة النهر، حطّم اميليان الطبل إلى قطع صغيرة، ورماه في النهر، فتفرّق الجنود جميعاً. أخذ اميليان امرأته وعاد إلى منزله.

ومنذ ذلك اليوم كفّ القيصر عن تعذيبه. وصار اميليان يعيش بطمأنينة ويجمع الأموال.

الحبــــة العجيبــــة

وجد أطفالٌ ذات يوم، في حفرة صغيرة، شيئاً بحجم بيضة الدجاجة، شيئاً تعترضه فرضة كالتي في الحبة. رآه بين أيديهم أحدُ المارة، فاشتراها منهم بخمسة كوبيكات، وحملها إلى المدينة، وباعها إلى القيصر باعتبارها طرفةً من الطرف.

أحضر القيصرُ الحكماءَ وعرضَ عليهم هذا الشيء، ودعاهم إلى تحديد طبيعته: أهو بيضةٌ؟ أهو حبةٌ؟ فحصه الحكماء من وجوهه كافةً، فعجزوا عن تحديده.

تُركت الحبة على حافة نافذة، فجاءت دجاجةٌ ونقرتها وفتحتْ ثقباً فيها؛ عرف الجميعُ أنه حبّةٌ؛ وأعلَم الحكماءُ القيصر أن الحبة حبّة شيلم.

دهش القيصر من ذلك. كلّفَ الحكماء أن يبحثوا عن هذه الحبة متى وأين نبتت. استغرق الحكماءُ في أفكارهم، ورجعوا إلى كتب كثيرةٍ، لكن بلا نتيجة. وذهبوا إلى القيصر ليقولوا له:

– يستحيل أن نجيب جواباً يرضيك: أن كتبنا لم تتنبأ بمثل هذه الحالة. ويجب أن نسأل الفلاحين، فربما سمع واحدٌ منهم متى وأين أمكن لهذه الحبة أن تنبت.

استدعى القيصرُ الفلاح الأكبر سناً بين قدامى الفلاحين. فجيءَ بفلاح عجوز دخل عليه، أخضر الوجه، أدرد الفم، يجرّ نفسه على عكازتين. عرض عليه القيصرُ الحبّة، لكن الشيخ لم يرها بوضوح، وكان لابدّ له أن يستعين، ليفحصها بعينيه وبأصابعه.

سأله القيصر:

– أيمكنك أن تقول لي، أيها الجدّ، أين أمكن لمثل هذه الحبة أن تنبت؟ فلعلك قد بذرت مثلها في حقولك، أو لعلك قد اشتريت مثلها من مكانٍ ما؟

كان الشيخ أصمّ، شديد الصمم، فلم يسمع إلا بمشقةٍ، وأخيراً أجاب:

- لا، لم أبذر قط، ولا حصدتُ في حقولي قط، ولااشتريت قط مثل هذا الشيلم. والحب الذي كنتُ أُجنيه أو اشتريه لم يكن أكبر من شيلم اليوم، وينبغي أن أسأل أبي أين يمكن أن ينبت مثل هذا الحب.

استدعى القيصر والد الشيخ. فجيء به؛ كان فلاحاً عجوزاً جداً يمشي على عكازة واحدة.

عرض عليه القيصرُ الحبة.

- أيمكنك أن تقول لي أيها الشيخ أين أمكن لمثل هذه الحبة أن تنبت؟ فلعلك قد بذرت مثلها في حقولك، أو لعلك قد اشتريت مثلها من مكانٍ ما؟

كان سمعُ الشيخ ثقيلاً لكنه كان يسمع خيراً من ابنه.

أجاب:

- لا، لم أبذر قط، ولاحصدتُ في حقولي قط، ولااشتريت قط مثل هذا الشيلم. كان المالُ غير معروفٍ في زمننا. كان كل واحد يأكل خبز حقله، ومَنْ زاد ماعنده عن حاجته شارك المعوزين فيه... ولاأعلم أين أمكن لمثل هذه الحبة أن تنبت، كان الشيلم في زمني أكبر من اليوم، لكنه أصغر بكثير من هذه الحبة. سمعتُ أبي يردّد أن الشيلم في عصره كان يغلّ أكثر ويعطي حبّاً أكبر. اسأل أبي.

استدعى القيصرُ والد الشيخ. فجيء به أيضاً. دخل بغير عكازة، رشيق الخَطْوِ، صحيح النظر، مرهف السمع، ثابت الصوت. عرض عليه القيصرُ الحبّة.

أمسك بها الجدّ الأكبر، ونظر إليها، ووزنها في يده، وقال:

- هاقد مضت سنوات طوال لم أر فيها شيلم الزمن الغابر.

وبعد أن عضها ولاكها بأسنانه أضاف:

- إنها من الحب نفسه حتماً.

- قلْ لي إذن أيها الجد، أين ومتى بُذر مثل هذه الحبة. ألم تجن أنت مثلها في حقولك، أو ألم تشتر منها من مكانٍ ما؟

أجاب الفلاح العجوز:

- لم يكن الناس يعرفون، في زمني، شيلماً آخر. فهذا هو الشيلم الذي كنتُ آكله أنا نفسي وأُطعمه الآخرين. وهذا الشيلم هو الذي كنتُ أبذره، وأحصده، وأرسله إلى المطحنة قديماً.

سأله القيصر أيضاً:

- أكنتَ تشتريه أم كنتَ تزرعه أنت بنفسك في حقولك؟

أخذ الفلاحُ العجوز يضحك، قائلاً:

- لم يكن أحدٌ يرتكب مثل هذه الخطيئة في زمني: أن يبيع أو يشتري الخبز! بل إن المال لم يكن موجوداً في زمني. كان كل واحدٍ يملك مايكفيه من الخبز.

أردف القيصرُ:

- قلْ لي إذن، أيها الجد، أين كنت تزرع مثل هذا الحب، وأين كان حقلك؟

أجاب الجدُّ:

- كان حقلي أرضَ الله. وحيثما كنتُ أُدير محراثي فهناك كانت أرضي. كانت الأرضُ مشاعاً. لم يكن أحدٌ يسمي الأرضَ أرضه، ولم يكن أحدٌ يملك سوى عمله الخاص.

واصل القيصرُ كلامه:

– أحبّ أن أعرف شيئين أيضاً. أولاً، هذا الحبُّ الذي كان ينبت قديماً لماذا لم يعد ينبت الآن في أي مكان؟ ثانياً، لمَ احتاجَ حفيدُك لكي يمشي إلى عكازتين، وابنك إلى عكازة واحدة، بينما أنت نفسك نشيط الساقين؟ وعيناك بعيدتا النظر، وأسنانك تعضّ وتلوك، ولسانك بيّن ولطيف... لم ذلك، أيها الجد؟

فأجاب الفلاحُ العجوز:

– ذلك أن الناس عَزَفوا عن طلب خبزهم من عمل أيديهم، وأنهم يُؤْثرون أن يعيشوا من عمل الآخرين. لم يكن الناس يعيشون هكذا في الزمن الغابر، كانوا يتّبعون شريعة الله؛ كانوا يعيشون مسرورين من القليل دون أن يحسدوا أحداً.

ثلاثة أبناء

أعطى أبٌ ابنه ملكاً واسعاً وقمحاً وماشيةً، وقال له:
- عشْ كما عشتُ، وستكون أمورُكَ على مايرام».
تسلّم الولدُ ماأعطاه إياه أبوه، وانصرف، وشرع يعيش من أجل لذّته. «دعاني أبي أن أعيش كما يعيش؛ وهو يعيش عيشةً هنيئةً، وإذن فسوف أعيش مثله».
عاش هكذا سنةً، سنتين، عشر سنين، عشرين سنة. انفق كلّ ماأعطاه إياه أبوه، فعاد صفر اليدين. حينئذبدأ يسأل أباه أن يعطيه المزيد، لكن الأب رفض، حاول أن يتملّقه، وأن يهديه أحسنَ ماعنده، وأن يتوسل إليه. لكن الأب أصمّ أذنيه. فأخذ الابنُ يسأل والده المغفرة، ظاناً أنه أهانه، وتملّقه مرة أخرى؛ لكن الأب أبى أن يلين.
وأخذ الابن يلعن أباه، ويقول:
- إن كنت لاتريد أن تعطيني شيئاً الآن، فلماذا وهبتني تلك الهبة فيما مضى، وعلّلتني بأنها تكفيني لأن أعيش عيشة هنيئة دائماً؟... إن جميع الأفراح التي شعرتُ بها وأنا أنفق ثروتي لاتعادل ساعةً من الآلام التي أقاسيها الآن. أرى أنني أغرق ولاسبيل إلى النجاة. أنت... كان ينبغي أن تعلم أن تلك الثروة لن تكفيني، وأنت لم تعطني المزيد. قلتَ لي فقط: «عشْ مثلي وستكون الأمور على مايُرام». ولقد عشتُ مثلك؛ أنت عشت من أجل لذتك وأنا عشتُ من أجل لذتي. أنت احتفظت بالقسط الأكبر من الثروة، وأنا لم يكن عندي مايكفي. أنت لستَ أباً، أنت خدّاعٌ مسيءٌ! ملعونةٌ حياتي! ولتكنْ ملعوناً، أنتَ، أيها الغشاش، الجلاّد! لن أتعرّف عليك بعد الآن، إني أكرهك!
أعطى الأبُ أيضاً ملكاً واسعاً للابن الثاني وقال له فقط:
- عشْ كما عشتُ، وستكون أمورك على مايُرام.
لم يكن رضا الابن الثاني عن هذه الهبة بقدر رضا الابن الأول؛ وجدها عادلة، لكنه كان يعلم ماحدث لأخيه البكر، ولذلك أخذ يفكر في

الطريقة التي يتبعها لكي لاينفق هو أيضاً ثروته كلها. أدرك أن أخاه أوّل تأويلا سيئاً قول أبيه: «عشْ كما عشتُ»، وأنه لاينبغي أن يعيش الانسان من أجل لذته ليس غير. وأخذ يفكّر فيما يمكن أن تعنيه هذه الجملة: «عشْ كما عشتُ». وفكّر أنه كان يجب عليه، شأنه شأن أبيه، أن يكسب ثروة تساوي الثروة التي أعطاه إياها أبوه. فشرع يعمل لينشيء ملكاً آخر شبيهاً بالذي جاءه من أبيه، وفكّر في الوسائل المؤدّية إلى ذلك.

استشار أباه، فلم يُجبه أبوه. ظنّ الابنُ أن الأب يخاف أن يقول له شيئاً، فأخذ يفحص جميع الأشياء التي يستعملها أبوه، لكي يفهم، من ذلك كيف كان يتصرف. أفسد كل ماتلقّاه من أبيه، وكل ماكان يفعله لم يكن له من قيمة. لكنه لم يشأ أن يعترف بأنه أفسد كلّ شيء. كان يقول للجميع: إن أباه لم يعطه شيئاً، وأنه فعل كلّ شيء بنفسه، وأن الجميع كان يمكنهم أن يفعلوا ماهو أفضل، وأن الناس سيبلغون عمّا قريب الكمال بحيث يغدو كلّ شيء كاملاً.

هكذا تكلم الابن الثاني طوال الزمن الذي بقي له فيه شيءٌ مما أورثه أبوه. لكنه عندما أضاع كلّ شيء انتحر.

أعطى أبوه ملكاً مماثلاً للأخ الثالث، وقال له: «عشْ كما عشتُ، وستكون أمورك على مايُرام».

ترك الابنُ الثالث أباه، سعيداً مثل أخويه بأن يحصل على مثل هذا الملك. لكنه كان يعلم ماحصل لأخويه. فأخذ يفكّر في معنى هذه الكلمات: «عشْ كما عشتُ» «كان أخي الأكبر يَحْسَبُ أن عيشنا كما عاش أبونا يعني أن نتصرف تماماً كما تصرف، وهو أيضاً قد مات. وإذن، فما معنى أن نعيش كما عاش أبونا؟».

أخذ يتذكّر كل ماعرفه عن أبيه. عبثاً فكّر، إذ لم يكن يعلم سوى شيء واحد أنه لم يكن له شيء قبل ولادته وأنه لم يكن موجوداً، وأن الأب هو الذي أوجده وأطعمه وعلّمه ووهبه خيراتٍ من كل صنف، وقال له:

«عشْ كما عشتُ وستكون أمورك على مايُرام» وكان يعلم أن أباه فعل كذلك لأخويه. عبثاً فكّر ولم يكن بوسعه أن يعلم شيئاً أكثر من ذلك. كل ماكان يعلمه هو أن أباه أحسن إليه وإلى إخوته.

وحينئذٍ أدرك ماتعنيه كلمات: «عشْ كما عشتُ» أدرك أن العيش كما عاش الأب يعني أن يفعل ماينبغي فعله من أجل خير الناس.

وبينما هو يفكّر كذلك أقبل عليه الأبُ وقال له: هانحن أولاء معاً من جديد وستكون أمورُك على مايُرام. إذهبْ إذن إلى جميع أولادي وقلْ لهم مامعنى: أن يعيشوا كما عشت، وأن الحقّ أن كل الذين سيعيشون مثلي سيكونون سعداء أبداً.

ومضى الابنُ الثالث يروي ذلك لذويه، ومنذئذ كان كل ولد ينال حصته يبتهج لا لأنه نال الكثير، بل لأنه يستطيع أن يعيش كأبيه وأن يكون سعيداً دائماً.

الأبُ هو الله، وأبناؤه هم البشر، والثروة هي الحياة. والناسُ يظنون أن بوسعهم العيش وحدهم دون الله؛ يتصور البعض أنهم أُعطوا الحياةَ ليتسلّوا؛ وهم يتسلّون ويبدّدون حياتهم، وعندما يأتي الموت لايفهمون لماذا أُعطوا الحياةَ التي تنتهي لذاتها بالآلام والموت.

وهؤلاء الناس يموتون وهم يجدّفون على الله، وينفصلون عنه. كذلك الابن الأول.

ومن الناس مَنْ يحسب أنهم أُعطوا الحياة ليدرسوها وليحسّنوها، وهم يعملون ليصنعوا لأنفسهم حياةً أفضل؛ لكنه حين يحسْنون هذه الحياة يفقدونها ويحرمون أنفسهم بأنفسهم الحياةَ.

وهناك أخيراً من يقول:

- كل مانعلمه عن الله هو أنه يهب الناسَ الخيرات ويأمرهم أن يفعلوا مثله الشيء نفسه. فلنفعل إذن الشيء نفسه: الخيرَ للناس. وماإن يفعلوا حتى يأتي الله إليهم ويقول لهم:

- هذا ماكنت أريده. افعلوا معي ماأفعله، وستعيشون مثلي.

نيكــــولا بــــالكيــــن

قضينا الليل عند جندي قديم عمره خمسة وتسعون عاماً خدم في عهد الاسكندر الأول ونيكولا الأول.

- ماذا، أيها الجدّ! أتريد أن تموت؟

- أن أموت! آه! نعم، أريد ذلك؛ فيما مضى كنتُ أخاف الموت، والآن لاأطلب من الله إلا شيئاً واحداً: أن أتوب وأتناول لأنني أتيتُ كثيراً من الذنوب.

- ما ذنوبك؟

- كيف، ماذنوبي! ألا تعلم أنني خدمتُ في عهد نيكولا الأول؛ أكانت الخدمة آنذاك كما هي الآن؟

«أوه! هذه الذكرى رهيبة! بدأتُ خدمتي في عهد الاسكندر، كان الجنود يغنون مدائحه، قيل إنه كان صالحاً جداً. . .

تذكرت الأزمنة الأخيرة من ملك الاسكندر، عندما كان يُضرب عشرون جندياً من مئة، حتى الموت، فماذا عساه يكون نيكولا مقارنةً به، إذا نُعت الاسكندر بأنه صالح.

وأردف الشيخ:

- تابعتُ خدمتي في عهد نيكولا.

ومالبث أن نشط وأخذ يروي:

- وأيّ زمنٍ! لم يكن البنطال يُرفع من أجل خمسين جلدة إذ ذاك؛ ومن أجل مئة وخمسين ومئتين وثلاث مئة جلدة. . . كان الجَلْد حتى الموت.

كان يتكلم باشمئزاز واستفظاع.

- والعصا[1]! لم يكن يمر اسبوع دون أن يُضرَب رجلٌ أو رجلان من الفوج حتى الموت. لايعرف أحدٌ الآن ما العصا، أما فيما مضى فإن هذه

---

(١) والعصا: أُدخل هذا العقابُ البغيض في الجيش الروسي من المانيا في القرن الثامن عشر، وأُلغي في بروسيا سنة ١٨٠٧، ومورس كثيراً في الجيش الروسي، ولم يُلغ إلا في سنة ١٨٦٤.

الكلمة الصغيرة لم تكن تخرج من الفم: عصا، عصا. كان الجنود عندنا يسمّون الامبراطور نيكولا بالكين[1]. كانوا يقولون نيكولا بالكين بدلاً من نيكولا بافلوفيتش. وهاأناذا عندما أتذكر ذلك الزمن، عندما أتذكره، إنه فظيع. كم من الذنوب تُثقل الضمير! كنتَ تُؤمَرُ بمئة وخمسين جلدة لسوءسلوك جندي (كان الشيخ صفّ ضابط)، وأنت كنت تعطيه مئتين، ولم يكن هذا يشفيك؛ وتلك هي الخطيئة.

كان صفُّ الضباط يضربون الجنود الشباب حتى الموت: كانوا يضربون بعقب البندقية أو بقبضة اليد في الصدر أو في الرأس، ويموت الجندي فلا يوبّخك أحد.

كان يموت لأنه ضُرب، وكانت السلطاتُ تكتب: «مات بمشيئة الله»، وكان ذلك كل شيء. لكني هل كنت أفهم ذلك، حينئذ؟ لايفكّر المرءُ إلا بنفسه، ونستلقي الآن على المدفأة فلا ننام الليل ونفكّر: سيكون شيئاً حسناً إن نلتَ المناولة المسيحية والمغفرة، وإلاّ فالأمر رهيب! عندما نتذكّر مقدار الألم الذي ألحقناه، ومانفع الجحيم، هذا أسوأ من الجحيم...

كنتُ أتصورّ بشدّة كل مايمكن أن يتذكره في شيخوخته المنعزلة هذا الرجل المشرف على الموت، ومع أنه غريبٌ عني، إلا أنني ارتعبتُ. كنتُ أتذكر كل الفظاعات التي لابد أنه شارك فيها. كنتُ أتذكر كيف كان يُعذَّب الجنودُ بالقضيب حتى الموت، وأتذكّر القتلَ، ونهبَ المدن والقرى، في الحرب (شارك الشيخُ في حملة بولونيا[2])، ورجوتُه أن يحدثّني عن ذلك كله؛ طلبتُ إليه إن يروي لي تفاصيل عن عقوبة القضيب، فروى لي قصة هذا التعذيب الرهيب. إذ تُربَط يدا الرجل كلٌّ يد ببندقية، ويُمرَّ بين صفين

---

(١) نيكولا بالكين: جعل بعضُ الجنود اسم أسرة القيصر بافلوفيتش (ابن بول) كأنه مشتق من «بالكا» التي تعني العصا..

(٢) حملة بولونيا: إبّان الثورة البولونية (١٨٣٠ - ١٨٣١).

من الجنود الذين يمسك كل منهم قضيباً يضربون به الضحية؛ وخلف الجنود، يتمشى ضباطٌ وهم يصرخون:

- اضرب ضرباً أشد، ضرباً أشد!

كان الشيخ يصيح بهذه الكلمات، بصوت حاسم، وقد تذكرها برضاً واضح، محاكياً تلك اللهجة، لهجة البسالة الآمرة. كان يروي هذه التفاصيل دون ندم، وكأن الكلام يجري على ثيران معدّة للذبح. روى كيف جُرَّ مسكينٌ ذهاباً وإياباً، بين الصفوف؛ كيف يقاوم الرجلُ المضروب ويقع؛ كيف تُشاهَد أولاً المساحبُ الداميةُ؛ كيف يسيل الدمُ؛ كيف يسقط مزقاً اللحمُ المضروب؛ كيف تُشاهَدُ العظام؛ كيف يصرخ المسكين في البداية ثم يزعق زُعاقاً بهيماً عند كل ضربة، ثم يسكت؛ كيف يدنو الطبيبُ المكلَّفُ، ويفحص النبضَ وينظر ويقررّ إذا كان من الممكن أن يُضرب الرجلُ دون أن يُقتَل، أو هل ينبغي الانتظار إلى أن يشفى ويبدأ الضربُ من جديد حتى تنتهي كميةُ الضربات التي قرّر فرضَها عليه وحوشٌ مفترسة، وعلى رأسهم بالكين؛ ويستخدم الطبيب علمه ليحول دون موت الرجل قبل أن يكابد جميع العذابات التي يمكن أن يتحملها جسدهُ. وعندما يعجز عن المشي يُحملُ إلى المشفى على معطفٍ ويعالَج هناك، لكي يستوفي، إذا شفي، ألف ضربةٍ أو ألفين بقيت عليه ولم يستطع أن يتحملها دفعة واحدة. روى أن الجنود كانوا يطلبون الموت، لكنهم لم يكونوا ليُعطَوا الموت، بل يُشفون ليُضربوا مرة ثانية وثالثة. ويعيش المسكين؛ إنه يُرمى في المشفى منتظراً العذابات الجديدة التي تقوده إلى الموت؛ وحينئذ يُساق الى التعذيب مرة ثانية وثالثة ويُضرب حتى آخر نفس. كلُّ ذلك لأن الرجل هرب من الفوج، أو لأنه أوتي الجسارة والجرأة لأن يشكو سوءَ التغذية من أجل رفاقه أو لأنه يقول إن القادة يسرقون.

روى ذلك كله، وعندما أردت إيقاظ ندمه على مثل هذه الأفعال، دهش ثم ارتعب بعد ذلك. قال:

- لا ، كـان ذلك بحكمٍ صـدر ، فـيمَ أنا مـذنبٌ، كـان ذلك حكم القانون؟

كان مطمئناً أيضاً ولم يشعر بتبكيت الضمير كذلك للفظائع العسكرية التي شارك فيها والتي كثيراً مارآها في تركيا وفي بولونيا .

تحدّث عن قتل الأطفال ، عن السجناء الذين يُتركون ليموتوا من الجوع والبرد ، عن قتل شاب بولوني اندفع نحو شجرة ، بطعنات الحربة ؛ ولما سألتُه إن لم يكن ضميرهُ معذّباً بهذه الأفعال ، لم يفهم . كانت هذه هي الحرب ، بالقانون ، من أجل الامبراطور ومن أجل الوطن ؛ وإذن فلم تكن هذه الأفعال سيئةً ، بل لقد كان يظنها مجيدة ، فاضلةً ، وقادرة على التكفير عن ذنوبه . لم يكن يتعذّب إلا من أفعاله الشخصية : من كونه ، وهو رئيس جماعةٍ ، ضرب وعاقب رجالاً . كان ذلك وحده يكدّر ضميره . لكنه لكي يكفّر عن أخطائه ، يؤمن بوسيلة وحيدة هي المناولة . وهو يأمل أن يحصل عليها قبل الموت ؛ ولقد رجا لذلك ابنة أخيه ؛ فوعدته هذه بعد أن أدركت أهمية هذا الفعل ، وهو مطمئن النفس .

لم يكدِّر ضميره أنه نهب ، وقتل نساءً وأطفالاً أبرياء ، وذبح رجالاً بطعنات الحربة ، وجلد حتى الموت مساكين جرّهم إلى المشفى ليعذّبهم من جديد ، ليس ذلك من شأنه ، ويبدو أن رجلاً آخر غيره هو الذي فعل ذلك .

وماذا عسى يفكّر هذا الشيخ لو فهم ماكان ينبغي أن يكون واضحاً جداً عنده عشية الموت ، وأنْ ليس هناك ولايمكن أن يكون ، حتى في ساعة الموت ، أيُّ وسيط بين ضميره والله .

ولايمكن أن يكون أيضاً أيُّ وسيط يجبره على تعذيب الآخرين وقتلهم؟ وماذا سيحل به لو فهم الآن أنْ لاشيء يمكن أن يكفّر عن الشرّ الذي ارتكبه آنذاك والذي كان بإمكانه ألاّ يرتكبه؟ لو علم أنْ ليس هناك سوى قانون وحيد وأبدي يأمر بالمحبة والشفقة بين البشر ، وأن ما دعاه قبل قليل قانوناً ليس سوى خدعة مخزية ، حقيرة ، ماكان ينبغي له أن يقع فيها؟ وإنه

لشيء رهيب حين نفكّر فيما يُلازم ذهنه أثناء هذه الليالي المسهّدة على المدفأة، وكم سيكون يأسه لو فهم أنه في اللحظة التي أُتيح له فيها إمكان فعل الخير أو الشر، لم يُقدم على غير الشر، في حين كان يعلم ممّ يتكوّن الخيرُ.

- حينئذ، لمَ نريدُ تعذيبه، لمَ نُقلقُ ضمير شيخ يموت، الأَولى أن نهدّئه؟ لمَ نُزعج الشعب، ونذكّره بما مضى؟

مامضى؟ فيما مضى؟ أهو ماضٍ مالم نبدأ بتدميره أو الشفاء منه بعد، بل مانزال نخشى تسميته باسمه؟ المرضُ المخطرُ هل يمكن أن يكون ماضياً لأننا نقول فقط إنه غير موجود؟ إنه لم يشف ولن يشفى إذا لم نعترف بأننا مرضى. ولكي نشفي المرض يجب أن نعرفه أولاً، وذلك بالضبط مالانفعله. ونحن لانُحجم عن فعله فحسب، بل إننا نفعل وسعنا لكي لانراه، لكي لانسمّيه. والمرض لم يزل، إنه تغير فقط، وهو ينفذ نفاذاً أعمق الى اللحم والدم والعظام. إن المرض يكمن في أن الناس الذين وُلدوا أخياراً ودعاءَ، متشرّبين روح العقيدة، الناس المفعمين بالأسف لأنهم جرحوا القريب بالكلمات، ولأنهم لم يتقاسموا خيراتهم مع المتسوّلين، لأنهم لم يَرْنوا للسجناء، هؤلاء الناس يقضون أفضل سني حياتهم في الجريمة، ويعذّبون إخوتهم، وهم لايندمون فقط على هذه الأفعال، لكنهم يعتبرون الحرب ضرورة حتمية كالأكل والتنفس. أليس من واجب كل واحد أن يعمل وسعه للشفاء من هذا المرض، وأن يكتشفه أولاً وبصورة رئيسية، ويعترف به، ويسمّيه باسمه. إن الجندي العجوز قضى حياته يعذّب الآخرين ويذبّحهم، ونحن نقول: لماذا نذكّره بذلك؟ إن الجندي لايظن نفسه مذنباً، وهذه الأشياء الرهيبة، العصيّ والسياط وماسواها، كل ذلك قد مضى؛ لمَ التذكير بهذه الأشياء العتيقة. الآن لم يعد شيءٌ من ذلك موجوداً. لقد كان هناك نيكولا بالكين، فلمَ الكلامُ عليه؛ الجنديُّ العجوز وحده يتذكّره، فلم نُزعج الشعب؟

قيل الشيء نفسه عن الاسكندر في زمن نيكولا ؛ والشيء نفسه عن «بول» في زمن الاسكندر ؛ والشيء نفسه عن كاترين في زمن بول، عن هيجان فسادها، وجنون عاشقيها، وفي زمن كاترين قيل الشيءُ نفسه عن «بطرس»، الخ . . . لمَ التذكير بذلك كله؟ كيف، لمَ التذكير بذلك؟ إن كنتُ مصاباً بمرض رهيب أو مخطر يصعب شفاؤه ثم تخلّصتُ منه، فسأتذكره بفرح ؛ لكنني لن أتكلم عنه مادمتُ مريضاً به مرضاً يسير من سيء إلى أسوأ، مادمت أريد أن أوهم نفسي. حينئذ فقط لاأتكلم عنه. ولانريد أن نتذكره لأننا مازلنا مرضى. لمَ نُحزن الشيخ ونُزعج الشعب. العصا، القضيب، كل ذلك غدا بعيداً، غدا من الماضي. كلا، إن ذلك قد غيّر شكله فقط. في جميع الأزمنة، حدثت أشياءُ لانتذكرها باستفظاع فقط، بل بسخط. نقرأ وصف المحارق للمهرطقين، والتعذيب، والعصيّ، والتعذيب بالجَلْد بين الصفين، فلا نستفظع وحشية البشر فحسب، بل اننا لانستطيع أن نتصور نفسيّة البشر الذين كانوا يفعلون ذلك. ماذا في نفس ذلك الرجل الذي ينهض من فراشه، ويرتدي بزّته، بزة السيّد المُطاع، ويصلي لله، ثم يذهب إلى غرفة التعذيب ليفكك أوصال النساء والشيوخ، ويجلدهم بالسوط، ويقضي في هذا الشغل خمس ساعات في اليوم، مثل الموظف الحالي في مجلس الأعيان، ثم يعود إلى البيت، ويجلس مطمئناً إلى طاولته ويقرأ الكتاب المقدّس؟ ما الذي نجده في نفس هؤلاء الآمرين للأفواج والكتائب الذين (وقد عرفت أمثال هؤلاء) كانوا يرقصون، عشية أمس، رقصة المازوركا مع إحدى الحسان، ثم يذهبون مبكّرين لكي يتمكنوا في اليوم التالي، في ساعة مبكرة، أن يعطوا أوامرهم ليعذبوا بالقضيب، حتى الموت، جندياً تترياً هرب أو قتل رجلاً، ثم يعودون إلى الغداء في بيوتهم؟ كل ذلك جرى في عهد بطرس وكاترين والاسكندر ونيكولا[1]؛ ليس من

---

(١) بطرس الأكبر: ١٦٨٩- ١٧٢٥. كاترين: ١٧٦٢- ١٧٩٦. الاسكندر ١٨٠١- ١٨٢٥. نيكولا ١٨٢٥- ١٨٥٥.

حقبةً لانجد فيها هذهِ الأحداث الفظيعة التي لانستطيع فهمها. لانستطيع أن نفهم كيف يستطيع الناسُ ألاّ يروا الوحشية الشرسة لهذه الفظائع، أو على الأقل غياب العقل عنها. جرى مثل ذلك في جميع الأزمنة، فهل زمننا بلغ جداً من السعادة بحيث لانجد له نظائر، أليس فيه أعمالٌ ستبدو للآتين بعدنا غير قابلة للفهم مثل تلك؟

نجد في زمننا الأفعال نفسها والفظائع نفسها، لكننا لانراها، كما أن أسلافنا لم يروها في زمنهم. ليست الوحشية وحدها، بل غياب العقل عن المحارق والتعذيب القضائي كوسيلة لمعرفة الحقيقة، كل ذلك واضح لنا. الطفل يفهم مافيها من مخالفة للعقل. لكن الناس فيما مضى لم يكونوا يفهمونها. كان العقلاءُ والعلماء يؤكدون أن التعذيب شرطٌ ضروري لحياة البشر، وأنها مؤلمة، لكن لابدّ منها؛ والشيء نفسه بالنسبة الى العصا والعبودية. ثم مضى الزمن، ومن الصعب علينا الآن أن نتصور الحالة الذهنية لهؤلاء الناس الذين أمكن أن يقعوا في مثل هذا الخطأ الكبير. لكن ذلك حدث في جميع الأزمنة، ولذلك فلا بدّ أن يحدث في زمننا، ولابد أن نكون، نحن أيضاً، عُمياً عن جرائمنا. أين تعذيبُنا، وعبوديتنا، وعصيّنا؟ يبدو لنا أنها لم تعد موجودةً، وأنها وُجدت فيما مضى، وأنها زالت الآن. يبدو لنا ذلك لأننا لانريد أن نفهم الأشياء فيما مضى، ونغمض عيوننا بكل عناية. لكننا لو فحصنا الماضي بانتباه لفهمنا بوضوح وضعنا الحالي وأسبابه. ولو سمينا فقط بأسمائها المحرقة، والتعذيب، والمشنقة، والتجنيد، لوجدنا إذن الاسم الحقيقي أيضاً للسجون والجيوش والنوّاب العامين والشرطة. وإذا لم نقلها فلماذا نتكلم عنها؟ لكننا لو أمعنا النظر فيما كان يجري قديماً لرأينا وفهمنا مايجري الآن. وإذا كان واضحاً لنا أن من الخبَل قطع الرؤوس على خشبة الجزّار، وانتزاع الحقيقة بالتعذيب؛ حينئذ سيغدو واضحاً لنا وليس أقلّ وحشيةً وخبلاً شنق الناس، وحبسهم في زنزانات تعادل الموت إن لم تكن أسوأ ومعرفة الحقيقة على أيدي محامين مأجورين أو نواب عامين. وإذا

بدا واضحاً لنا أن من الوحشية والخبَل أن يُقتل إنسانٌ ضلَّ طريقه، فكذلك يتضح لنا أنه أشد وحشيةً إيداع ذلك الرجل السجن لإفساده نهائياً. وإذا كان واضحاً لنا أن من الخبَل والوحشية جعْل الفلاحين جنوداً ووشمهم كما يوشم الحيوان، فكذلك يبدو لنا أن الخبَل والوحشية أن يُجبر كل إنسان بلغ الواحدة والعشرين على الذهاب الى الخدمة. وإذا كان واضحاً لنا مدى الخبل والوحشية في «الاوبريتشينا»[1] فإن خبل الحرس والشرطة السرية ووحشيتهما لأوضحُ. وإذا ماكففنْا فقط عن إغماض أعيننا عن الماضي وعن القول: لماذا نذكر الماضي؟ حينذاك سنرى بوضوح أن في زمننا الفظائع نفسها، لكن بشكل جديد ليس غير. نحن نقول: كل ذلك مضى، ولانجد الآن عذاباً، ولاملكات فاسدات مثل كاترين، مع عشاقهن القادرين على كل شيء، ولاعبوديةً، ولاقتلاً بالعصا.

لكن ذلك هو الظاهر. هناك ثلاث مئة ألف سجين محبوسون في السجون، في حجر منفردة ضيّقة ونتنة، يموتون موتاً بطيئاً، موتاً جسدياً ومعنوياً؛ ويظل أولادهم ونساؤهم وحيدين يموتون جوعاً. ويودَع هؤلاء الناس في كهوف الفساد، في السجون، وهذا الحبس الوحشي الجنوني لايُفيد سوى الحُرّاس والمديرين، وهم السادة المطلقون لأولئك العبيد. إن عشرات آلاف البشر من ذوي «الأفكار الضارّة» يحملون هذه الأفكار، بنفيهم إلى الأرجاء المنعزلة من روسيا، أو يصبحون مجانين ويشنقون أنفسهم. إن الآلاف محبوسون في القلاع حيث يقتلهم سراً رؤساءُ السجون أو يصبحون مجانين بتأثير الحبس الانفرادي. إن ملايين البشر يهلكون معنوياً وجسدياً في عبودية المصانع. مئات الآلاف يُنتزعون كلَّ خريفٍ من أسرهم وزوجاتهم، ويُعلَّمون القتْل، ويُفسدون إفساداً منهجياً. ولايستطيع امبراطور روسيا أن ينتقل إلا في حماية سلسلة من نحو مئة ألف جندي

---

(١) الاوبريتشينا: الاسم الذي أُطلق على الحرس الشخصي لايفان الرهيب والذي أسَّس عام ١٥٦٦ والذي كان ينهب الشعب ويعذّبه.

يوضعون على دربه، بحيث يبعد كلُّ جندي عن الآخر خمسين قدماً، وسلسلة سرّية تتبعه حيثما ذهب. ورب ملك يجمع الضرائب ويأمر ببناء برجٍ في قمته ينُشيء بركةً ملونةً باللون الأزرق، وآلة تحاكي العاصفة، ويتنزه فيها بزورقه. ويموت الشعبُ في المصانع، في ايرلندا وفرنسا وبلجيكا. ولايحتاج المرءُ إلى بصرٍ نافذ فوق العادة لكي يرى أن الشيء نفسه يجري في زمننا، وأن فيه حالياً التعذيبَ نفسه، والفظائع نفسها التي ستسبّب للأجيال القادمة دهشةً عظيمة بوحشيتها وخبلها.

المرضُ مايزال هو نفسه، لكن المرضى ليسوا هم الذين يستغلّون هذه الفظائع. لكن ليستغلّوها مئة مرة أو ألف مرة أكثر؛ وليَبْنوا الأبراج، والمسارح؛ لينهبوا الشعبَ؛ ليجلده بالكين؛ ليشنق «بوبيدو نوزتزيف»[1] و«اورغيفسكي»[1] الناس بالمئات سراً في القلاع، لكنْ ليفعلوا ذلك كله بأنفسهم؛ وعليهم ألاّ يفُسدوا الشعب، ألاّ يخدعوه حين يجبرونه على أن يشارك في ذلك، مثل ذلك الجندي العجوز. إن الشر الرهيب يكمن في هذه الفكرة وهي أنه يمكن أن يوجَد للأنسان شيءٌ أقدس من قانون محبّة الإنسان. إن الإنسان يمكنه أن يقوم بكثير من الأعمال إرضاء لطلبات أمثاله من الناس، لكن هناك عملاً واحداً لايجوز أن يفعله: لايجوز له، بأمرٍ من أي شخص، أن يسير ضد مشيئة الله: أن يقتل إخوانه ويعذّبهم. ومنذ ألفٍ وثماني مئة سنة كان الجواب على سؤال الفريسيين: «هل ندفع الجزيةً لقيصر»؟ «دَعُوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله».

إذا كان للناس عقيدةٌ ما، واعتقدوا أن ثمة شيئاً يدينون به لله، فسوف يعتقدون قبل كلّ شيء أن مايدينون به لله هو ماعلّمه الإنسانَ: «لاتقتلْ»، «لاتفعل بالآخرين مالا تريد أن يفعلوه بكَ»، «أحبَّ قريبك كنفسك»، وماحفره في قلب كلّ إنسان بخطوط لاتُمحى: حب القريب، الشفقة عليه، استفظاع القتل وظلم الإخوان.

---

(١) «بوبيدو نوزتزيف» ١٨٢٧ - ١٩٠٧ نائب المجمع المقدّس، ورجعي محدود مارس تأثيراً مشؤوماً على الاسكندر الثالث ونيكولا الثاني. أما «اورغيفسكي» فكان قائد الشرطة في عهد الاسكندر الثالث.

ولو آمن الناس بالله لما أمكنهم تجاهل هذا الواجب الأول نحوه: ألا يعذِّب الإنسانُ الإنسانَ، ألا يقتله. وحينئذ يصبح لهذه الكلمات: «دعوا مالقيصر لقيصر ومالله لله»، دلالة واضحة ودقيقة.

يقول المؤمنُ:

– للملكِ أو لمن تشاء، كلُّ مايشاء، على ألاّ يناقض مشيئة الله. يريد قيصر مالي، هاهوذا؛ يريد بيتي وعملي، خذْهما؛ امرأتي، أولادي، حياتي، خذْ كل ذلك، كل ذلك ليس لله بل لقيصر. أمّا أن أقف وأمّد عصاي على قريبي، هذه قضية مع الله، هذا عملٌ من حياتي يجب أن أقدّم حسابي عنه لله، ولم يأمرني اللهُ أن أتصرف هكذا ولا يمكنني أن أسلِّم بذلك لقيصر. لايمكنني أن أقيّد إنساناً، وأن أسجنه، وأن أعاقبه، وأن أقتله، كلُّ ذلك هو حياتي، وهي تخصّ الله، ولايمكنني أن أهبها، أن أضحي بها لأحد، ماعدا الله.

إن هذه الكلمات: «لله مالله» تعني لنا أننا يجب أن نقدّم لله شموعاً وصلوات وكلمات، وعلى العموم، كل ماليس ضرورياً لأحدٍ، ولا لله؛ وكل ماسوى ذلك: كل حياتنا، كل قداسة نفسنا التي تخصّ اللهَ، كل ذلك نهبه القيصر، أي نهبه رجلاً غريباً نكرهه.

لكن هذا رهيب، أيها الناسُ، فتذكروه.